المجلد التاسع والعشرون للعام ٢٠٢٥م
حولية كلية اللغة العربية بجرجا

رؤية العَالم في شعر أبي إسحاق الصابئ والشريف الرضي

Seeing the world in the poetry of Abu Ishaq Al-Sabi and Sharif Al-Radhi

بقلم الدكتور

يُوسُفُ عبَّاس علي حُسَين

أستاذ الأدب العربي القديم المساعد

ووكيل كلية الألسن للدراسات العليا والبحوث – جامعة الأقصر

جمهورية مصر العربية

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الأول من إصدار يونيه ٢٠٢٥م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٥/٦٩٤٠م

رؤية العَالم في شعر أبي إسحاق الصابئ والشريف الرضي

يُوسُفُ عبَّاس علي حُسَين

قسم الأدب العربي القديم ـ كلية الألسن– جامعة الأقصر ـ جمهورية مصر العربية .

البريد الإلكتروني : dr_youssef2030@gmail.com

الملخص

شهد العصرُ العباسيُّ تطوُّرًا فكريًّا وثقافيًّا كبيرًا، فظهرت خلال هذه الفترةِ شخصياتٌ أدبيةٌ، كان لها أثرُها العميقُ في تشكيل رؤًى خاصَّةٍ للعالم، وكان من بين هذه الشخصيات أبو إسحاق الصابئ، والشريف الرضي، حيث تميَّزا برؤيةٍ خاصةٍ للعالم، انعكست في كتابتهما الشعرية، واستطاعا الجمعَ بين التأمُّل الفلسفي، والنقد السياسي والاجتماعي.

ومن هنا كانت الدراسةُ الحاليةُ بحاجةٍ إلى تطبيق رؤية العالم؛ إذ إنَّها من أكثر المناهج ملاءمة لعينة البحث الحالي (رؤية العالم في شعر أبي إسحاق الصابئ والشريف الرضي)؛ للوقوف على نصوصهما الشعرية، وما تحويه من مضامينَ في هذه الفترة، أقصد فترةَ حياتهما، فلهما إسهاماتٌ أدبيةٌ ثريةٌ تعكسُ الفكرَ والثقافةَ في العصر العباسي، فظروفُهما السياسيةُ والاقتصاديةُ والاجتماعيةُ متشابهةٌ، وكذلك تُشكِّلُ رؤيةً واحدةً للعالم.

حيث نجدُ نصوصَهما يُمثِّلان نموذجًا حيًّا، يتناولُ رؤيةَ الشاعرين تجاه المجتمعِ، معالجين أبرزَ القضايا المطروحةِ في مجتمعهما.

الكلمات المفتاحية: رؤية العالم – الشريف الرضي – أبو إسحاق الصابئ

Seeing the world in the poetry of Abu Ishaq Al-Sabi and Sharif Al-Radhi

Youssef Abbas Ali Hussein
Department of Ancient Arabic Literature, Faculty of Al-Alsun, Luxor University, Arab Republic of Egypt.
Email: dr_youssef2030@gmail.com

Abstract

The Abbasid era witnessed a great intellectual and cultural development, so literary figures emerged during this period, who had a profound impact on the formation of special visions of the world, and among these figures were Abu Ishaq Al-Sabi, and Sharif Al-Radhi, as they were distinguished by a special vision of the world, reflected in their poetic writing, and were able to combine philosophical reflection, political and social criticism.

Hence, the current study needed to apply the vision of the world, as it is one of the most appropriate approaches to the sample of the current research (the vision of the world in the poetry of Abu Ishaq Al-Sabi and Sharif Al-Radhi); to find out their poetic texts, and the contents they contain in this period, I mean the period of their lives, they have rich literary contributions that reflect thought and culture in the Abbasid era, as their political, economic and social conditions are similar, as well as constitute one vision of the world.

Where we find their texts represent a living model, dealing with the vision of the two poets towards society, addressing the most prominent issues raised in their society.

Keywords: Seeing the World – Sharif Radhi – Abu Ishaq Al-Sabi

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله نحمدُه ونستعينُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

أمَّا بعد،،،،،،،،،،،

فقد شَهِدَ العصرُ العباسيُّ تطوُّرًا فكريًّا وثقافيًّا كبيرًا، حيث ظهرت خلال هذه الفترةِ شخصياتٌ أدبيةٌ، كان لها أثرُها العميقُ في تشكيل رؤًى خاصَّةٍ للعالم، وكان من بين هذه الشخصيات: أبو إسحاق الصابئ، والشريف الرضي، حيث تميَّزا برؤيةٍ خاصَّةٍ للعالم، انعكست في كتابتهما الشعرية، واستطاعا الجمعَ بين التأمُّل الفلسفي، والنقد السياسي والاجتماعي.

ومن هنا كانت الدراسةُ الحاليةُ بحاجةٍ إلى تطبيق رؤية العالم؛ إذ إنَّها من أكثر المناهج ملاءمة لعينة البحث الحالي (رؤية العالم في شعر أبي إسحاق الصابئ والشريف الرضي)؛ للوقوف على نصوصهما الشعرية، وما تحويه من مضامينَ في هذه الفترة – أقصد فترةَ حياتهما – فلهما إسهاماتٌ أدبيةٌ ثريةٌ تعكسُ الفكرَ والثقافةَ في العصر العباسي، فظروفُهما السياسية والاقتصادية والاجتماعية متشابهةٌ، وكذلك تُشكِّلُ رؤيةً واحدةً للعالم.

حيث نجدُ نصوصَهما يُمثلان نموذجًا حيًّا، يتناولُ رؤيةَ الشاعرين تجاه المجتمع، معالجين أبرزَ القضايا المطروحة في مجتمعهما.

أهداف البحث:

حاولت الدراسةُ الإجابةَ على مجموعةٍ من الأسئلة، على النحو التالي:

١- ما مفهومُ رؤيةِ العالم؟

٢- ما تأثيرُ ثقافةِ العصر على شعرهما؟

٣- هل تُوجدُ رؤيةُ العالمِ في شعر الشاعرين؟

٤- بِمَ شارك الشاعران في رؤية العالم المحيط بهما؟

٥- بِمَ امتازت رؤيةُ العالم عند الشاعرين في عصرهما؟

دوافع اختيار الموضوع:

حاول الباحثُ -كغيره من الباحثين السابقين- دراسةَ شعر أبي إسحاق الصابئ والشريف الرضي، ولكن برؤيةٍ خاصةٍ وجديدةٍ تحملُ عنوانَ: "رؤية العالم في شعر أبي إسحاق الصابئ والشريف الرضي"؛ وذلك لدوافعَ خاصةٍ جديدةٍ عند الباحث، كان من أبرزها:

- محاولةُ اقتناصِ الرؤية الكلية لشعر الشاعرين.
- تطبيقُ منهجٍ نقديٍّ يجمعُ بين النقد التقليدي والنقد البنيوي الجديد.
- تميُّزُ شعر الشاعرين بالثراء.
- عدمُ تفردِ أي دراسةٍ نقديةٍ – على حدِّ علمي – بدراسة شعر الشاعرين.

منهج الدراسة:

تناول الباحثُ في دراسته منهجَ البنيوية التكوينية، وهو منهجٌ نقديٌّ يجمعُ بين البيئة الداخلية للنص الأدبي والسياق الاجتماعي والتاريخي، حيث إنَّ الأدبَ يعكسُ رؤيةً جماعيةً للعالم، ولا يمكنُ فهمُ النص الأدبي بعيدًا ومنفردًا عن الظروف الاجتماعية والسياسية التي أنتجته، وكذلك يكونُ أكثرَ شموليةً للنصوص الأدبية.

الدراسات السابقة:

تأتي هذه الدراسةُ بجدوى ومبرراتٍ؛ استكمالًا لجهود السابقين في دراسة الشاعرين، فكانت هناك بعضُ الدراسات التي تناولتْ رؤيةَ العالم، وفي مقدمتها:

١- رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث الهجري – رسالة دكتوراه – صغير بن غريب عبد الله العنزي – كلية اللغة العربية – جامعة أم قرى – المملكة العربية السعودية سنة ١٤٣٥ه، وجاءت في: مقدمةٍ، وثلاثةِ فصولٍ، وخاتمةٍ، تناول في المقدمة: مفهوم الرؤية عند القدماء والمعاصرين.

الفصل الأول: الصعلكة وسياقاتها في المجتمع العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري.

الفصل الثاني: الرؤية في علاقات الصراع.

الفصل الثالث: الرؤية في علاقات التوافق.

الخاتمة: أهم النتائج والتوصيات.

٢- رؤى العالم عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر- جابر عصفور- المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- المغرب – ط: (١) سنة ٢٠٠٨م، تناولت الدراسةُ:

- رمزية الليل، قراءة في شعر نازك الملائكة.
- أقنعة الشعر المعاصر مهيار الدمشقي.
- الشعر في منتصف الوقت، قراءة في شعر أحمد حجازي.
- معني الحداثة.

٣- رؤية العالم "في قراءة التراث البلاغي عند جابر عصفور" عبد الرحمان إكيدر – جامعة القاضي عياض – مراكش – المغرب مجلة قراءات – ع (٩) سنة ٢٠١٦م، وتناولت:

- مفهوم رؤية العالم.
- قراءة جابر عصفور للأنماط البلاغية.
- رؤية العالم في المنجز البلاغي لابن المعتز.
- قراءة لقضية القديم والمحدث لابن المعتز.
- المصادر والمراجع.

٤- رؤية العالم عند جورج لوكاش مقاربة مفاهمية – خيثرنورة – رسالة ماجستير- كلية الآداب جامعة ابن خلدون – الجزائر سنة ٢٠٢٠م، تناولت:

مقدمة، الفصل الأول: الرؤيا والعالم، الفصل الثاني: البنيوية التكوينية ورؤيا العالم، الفصل الثالث: رؤيا العالم وتجلياتها في رؤية مزرعة الحيوان لجورج أورويل، وخاتمة.

٥- رؤية العالم في شعر أبي العلاء المعري – قراءة سوسيولوجية – صبيرة بودينة – رسالة دكتوراه – كلية الآداب والفنون جامعة حسيبة بن بو علي الشلف – الجزائر سنة ٢٠٢١م.

تناولت: مدخلًا وثلاثةَ فصولٍ وخاتمةً.

المدخل: البنيوية التكوينية: جذورها الفلسفية ومقولاتها.

الفصل الأول: البناء الحضاري لعصر أبي العلاء المعري.

الفصل الثاني: قراءة داخلية للمدونة (مرحلة الفهم).

الفصل الثالث: الرؤى والتماثل (مرحلة التفسير).

الخاتمة.

المصادر والمراجع.

٦- تأجيل النص المنهج البيوي لدى الحضري – غولدمان محمد نديم خشفة – مركز الإنماء الحضاري – حلب ط: (١) سنة ١٩٩٧م، تناولت: مقدمة كالوسيان غولدمان ومذهبه النقدي، الرؤية الكونية (مقدمة الإله الخفي)، المنهج البنيوي – التكويني في تاريخ الأدب، حول الفن والأدب والأيدلوجيا – فهرس الأعلام.

٧- رؤية العالم في رواية: قوارير شارع جميلة بوحيرد لربيعة جالطي – رواية آية نور الهدى – رسالة ماجستير معهد الآداب واللغات – المركز الجامعي عبد الحفيظ بو الضيف عيلة – الجزائر سنة ٢٠٢٣م. تناولت: مقدمةً، ومدخلًا تناول: رؤية العالم في معاجم اللغة، ورؤية العالم اصطلاحًا.

الفصل الأول: كرونولوجيا فلسفية لرؤية العالم، والفصل الثاني: رؤية العالم في رواية: قوارير شارع جميلة بوحيرد، وخاتمةً وملحقًا، وقائمةً بالمصادر والمراجع، وملخصًا.

ب- الدراسات السابقة والبحوث التي تناولت شعر الشاعرين:

١-دراسات حول أبي إسحاق الصابئ:

- أبو إسحاق الصابئ الكاتب والشاعر – ندي أبو رسلان- رسالة ماجستير – دائرة اللغة العربية – الجامعة الأمريكية – بيروت – لبنان سنة ١٩٨٧م، تناولت: توطئةً، ومقدمةً عن الصابئ وآثاره، الفصل الثاني: الصابئ الكاتب، الفصل الثالث: الصابئ الشاعر، وخاتمةً، وثبتًا بأسماء المصادر والمراجع.

- الصابئ بين الشعر والنثر – عبد الحميد محمد محمد الطنطاوي – مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة – ع (٧) سنة ١٩٨٧م، تناولت: الحالة الأدبية في عصر الصابئ، ترجمةً موجزةً لأبي إسحاق الصابئ، نثر الصابئ، وشعر أبي اسحق الصابئ، وخاتمةً، وقائمةً بالمصادر والمراجع.

- أبو إسحاق الصابئ سيرةً وفنًّا – عبد القادر حسين – مجلة الآداب – جامعة بغداد ع (١٨) سنة ١٩٧٥م، تناول: ملخص البحث – صفحات من حياته، وقائمة بالمصادر والمراجع.

٢- دراسات حول الشريف الرضي:

- دراسة جمالية في شعر الشريف الرضي – سميحة غنام – مجلة جامعة دمشق – ع (٣-٤) – مج (٢١) سنة ٢٠٠٥م، تناول: ملخص البحث، مقدمةً، سيرة الشاعر، عصره، العلاقة بين الفنان وفنِّه، النماذج الجمالية في شعر الشريف الرضي: (نموذج الاقتصاد – نموذج الذاتية)، وخاتمةً، وقائمةً المصادر والمراجع.

- الذات الشاعرة في حجازيات الشريف الرضي – سعدي بنت طفيف مبارك الدعوى – مجلة جامعة الطائف للعلوم الإنسانية – مج (٧) – ع (٢٧) يوليو سنة ٢٠٢١م، تناول:

المستخلص العربي والانجليزي، مقدمةً، إضاءةً عن صاحب الحجازيات والحجازيات، الذات العاشقة الحزينة، الخاتمة، الهوامش والتعليقات، وقائمةً المصادر والمراجع.

– حجازيات الشريف الرضي ونجدياته – إيمان عمران عبد الله رسالة ماجستير – كلية الدراسات العليا – الجامعة الأردنية – عمان – الأردن سنة ٢٠٠١م، تناولت: مقدمةً، الفصل الأول: سيرة الشريف الرضي، الفصل الثاني: العوامل التي كانت تثير الحنين لدى الشريف إلى الحجاز ونجد، الفصل الثالث: السمات الفنية في حجازيات الشريف الرضي ونجدياته، الفصل الرابع: الدلالات الرمزية في حجازيات الشريف الرضي ونجدياته، الفصل الخامس: الحجازيات والنجديات بعد الشريف الرضي، الخاتمة ، وقائمةً المصادر والمراجع، والملاحق، والملخص باللغة الإنجليزية.

– عبقرية الشريف الرضي – زكي مبارك – مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة سنة ٢٠١٢م، تناول: عبقرية الجندي المجهول، الشاعر المثقف، مقام الشريف الرضي بين شعراء القرن الرابع، أعوام البؤس في حياة الشريف الرضي، صلات الشريف الرضي بخلفاء بني العباس، صلات الشريف الرضي بالوزراء والأمراء والملوك، العلاء والمعالي في قصائد الشريف الرضي، والشريف الرضي كاتبًا ومؤلِّفًا، ونهج البلاغة والشريف، والأصدقاء والأعداء في حياة الشريف الرضي، وأسرار العلائق بين الرضي والصابئ، وغرائب الوفاء عند الشريف الرضي، وغراميات الشريف الرضي، ووصف السود الملاح، وعفاف الشريف، وحجازيات الشريف الرضي، وبكاء الشباب، والشاعر الوصاف، ومراثي الشريف، وقصيدة الوداع، والمصادر والمراجع.

– شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية – عبد اللطيف عمران – دار الينابيع – دمشق – ط: (١) سنة ٢٠٠٠م، تناول: تمهيدًا عن حياة الشريف الرضي وعصره، الفصل الأول: مراحل حياة الشريف الرضي الحقيقية الإبداعية، الفصل الثاني: أسرة الشريف الرضي، الفصل الثالث: الحياة العامة في عصره من الوجهة الاجتماعية والسياسية والفكرية، الباب الثاني: النقيب الشاعر، وانقسم إلى فصولٍ: الفصل الأول: النقابة في حياة الرشي وشعره، والفصل الثاني: الشريف الرضي والخلافة الإسلامية، والفصل الثالث: الشريف الرضي والعباسيون، الفصل الرابع:

الشريف الرضي والبويهيون، والفصل الخامس: الشريف الرضي والحمدانيون، والفصل السادس: الشريف الرضي والفاطميون، والباب الثالث: أغراض الرضي وموضوعاته، وانقسم إلى ست فصولٍ: الفصل الأول: المدح والتهنئة، والفصل الثاني: الرثاء والتعزية، والفصل الثالث: الفخر والشكوى، والفصل الرابع: حجازيات الرضي وغزله، والفصل الخامس: التشيع في شعره، والفصل السادس: الوصف، والباب الرابع: وسائل التعبير في شعر الرضي، وانقسم إلى ستة فصولٍ: الفصل الأول: اللغة الشعرية، والفصل الثاني: الموسيقي الشعرية، والفصل الثالث: الصورة الشعرية، والفصل الرابع: الخيال الشعري، والفصل الخامس: الوحدة في قصيدة الرضي، والفصل السادس: العقيدة والفن في شعر الرضي، والخاتمة، والمصادر والمراجع.

- **مشكلة البحث:**

عدم وجود ديوان شعري لأبي إسحاق الصابئ يجمعُ شعرَه، بل وُجدت أشعارُه متناثرةً في بطون الكتب.

- **الهيكل التنظيمي للبحث:**

اقتضت طبيعةُ الدراسة أن تأتيَ في: مقدمةٍ مشفوعةٍ بتمهيدٍ، وثلاثةِ مباحثَ تقفوهم خاتمةٌ، وثبتٍ بالمصادر والمراجع.

المقدمة: ذكرتُ فيها نبذةً عن الموضوع، وأهداف البحث ودوافعه، والدراسات السابقة، ومشكلة البحث، ومنهج البحث.

التمهيد: تناولت فيه: رؤية العالم في شعر أبي إسحاق الصابئ، والشريف الرضي: رؤية العالم اصطلاحًا – الشعر ورؤية العالم.

- **المبحث الأول:** الرؤية السياسية والاجتماعية في مخيلة الشاعرين.
- **المبحث الثاني:** المرأة والطبيعة في مخيلة الشاعرين.
- **المبحث الثالث:** الرؤية الدينية في مخيلة الشاعرين.
- **الخاتمة.**
- **قائمة المصادر والمراجع.**

تمهيد

رؤية العالم في شعر أبي اسحق الصابئ والشريف الرضي

رؤية العالم اصطلاحاً:

هو رؤيةُ الكاتب المستقبلية لما يدورُ حوله، وهذه الرؤيةُ تردُّ مشاكلَ الطبقات الاجتماعية، وتقومُ " بدراسة بنية العمل الأدبي دراسةً تكشفُ عن الدرجة التي يجسدُ بها العملُ بنيةَ الفكر عند طبقةٍ أو مجموعةٍ اجتماعيةٍ ينتمي إليها مبدعُ العمل، وتحاولُ دراستُه من هذه الزاوية أن تتجاوزَ الآنيةَ التي وقع فيها التحليلُ الاجتماعيُّ التقليديُّ للأدب، وذلك من خلال التركيز على بنيةٍ فكريةٍ تتمثَّلُ في رؤية العالم "[١].

ورؤيةُ العالمِ هو " مفهومٌ احترافيٌّ بل مكونٌ فعالٌ لما يعانيه الفرد ويعيشُه، وبناءً على ذلك فهو يبدو من اختصاص علم النفس " [٢].

وتتوسطُ رؤيةُ العالم بين الطبقة الاجتماعية والأعمال الأدبية، فـــــــ " تبدو رؤيا العالم حلقةً تتوسطُ الطبقةَ الاجتماعيةَ والأعمالَ الأدبيةَ، فالطبقةُ الاجتماعيةُ من خلال رؤيتها للعالم، وهذه الرؤيا تُعبِّرُ عن نفسها عبر الأعمال الأدبية "[٣].

إذن رؤيةُ العالمِ مرحلةٌ تسبقُ مرحلةَ تكوين النتاج الأدبي، وتربطُ الطبقةَ الاجتماعيةَ والأعمالَ الأدبيةَ، و" رؤيا العالم هي الفهمُ العقليُّ للواقع بما يتضمَّنُه من معرفةٍ ومعتقداتٍ عن الطبيعة والإنسان " [٤].

١- عن البنيوية التوليدية – جابر عصفور – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مجلة فصول – ع (أ) – مصر (د ت) / ص٨٤.

٢- البنيوية التكوينية والنقد الأدبي – لوسيان غلودمان وأخرون – ت: محمد سبيلا – مؤسسة الأبحاث العربية ط (٢) سنة ١٩٨٦ / ص١٤٤.

٣- رؤيا العالم في الخطاب المسرحي السياسي السوري – سعد الله ونوس أنموذجًا – رابح ذياب – رسالة دكتوراه – جامعة بائنة – الجزائر سنة ٢٠١٦/ص٦٢ .

٤- رؤية العالم عن الأستاذ الإمام "محمد عبده" – دراسة تحليلية نقدية – سيف الدين عبد الفتاح – جامعة القاهرة – نوفمبر ٢٠٠٥ / ص١٤.

ومصطلحُ رؤية العالم هو عبارةٌ عن: " مجموع التطلعات والمشاعر والأفكار الذي يجمعُ (أو يوحد) أعضاء جماعةٍ (طبقة اجتماعية في الغالب)، ويجعلهم يعارضون بقيةَ المجموعات "الإله المخفي"، وهي كذلك: " الحدُّ الأقصى من الوعي الممكن للمجموعة الاجتماعية الذي يُعبِّرُ عنه الكتابُ أو الفلاسفة"(١).

وتقومُ بتقديم رؤيةٍ متكاملةٍ للعالم، وهو مفهومٌ عامٌّ وشاملٌ، وأنَّ الأفرادَ في كل زمانٍ ومكانٍ ينظرون إلى العالم من حولهم بتدبرٍ وتأملٍ، ويصيغون رؤيةً حول العالم الذي يعيشون فيه، وكذلك العالم البعيد (ما وراء الطبيعة)(٢).

فتتغير رؤيةُ العالم بتغيُّر الظروف والمشاعر والظروف والرؤى الفكرية، فهي ليست ثابتةً، كما أنَّها تعكسُ تأملاتِ الإنسان وأفكارَه ولغتَه.

الشعر ورؤية العالم

يُعدُّ الشعرُ العربيُّ مصدرَ إبداع العرب، فهو وسيلةٌ للتعبير عن: مآثرهم، ومناقبهم، ومحامدهم، وهو ديوان، وسجل حياتهم عبر العصور، كما أنَّه مرآةٌ تعكسُ روح الأمة، و" الشعر منذ زمنٍ بعيدٍ يُمثِّلُ التعبيرَ الوحيدَ تقريبًا للإبداع الفني لدى العرب " (٣).

وهو يحملُ دلالاتٍ كثيرةً، حيث إنَّ الشعرَ هو " إدراكٌ فنيٌّ مجسدٌ باللغة. وهذه هي صفتُه النوعيةُ للعالم وأشيائه وناسه وأحداثه وعلاقاته، ودلالته دلالة فنية مرهقة تندثر بالغموض أحيانًا كثيرةً. وليس هذا الإدراكُ الفنيُّ منبتُ الصلة بالتاريخ، فهو استجابةٌ لحاجاتٍ جماليةٍ في واقعٍ تاريخيٍّ اجتماعيٍّ محدَّدٍ، وجزءٍ من

١- الأطروحة والتأويل – إدريس الناقورس – دار النشر المغربية – البيضاء سنة ٢٠٠٦ / ص١٨٨.

٢- ينظر: مفهوم رؤية العالم في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا –أحمد زايد – المجلة الاجتماعية القومية – ع (٣)– مج (٥٢)– سبتمبر سنة ٢٠١٥م/ص١.

٣- أسس الشعر العربي الكلاسيكي – الشعر العربي القديم – ايفالد فاجنر – ترجمة وتحقيق / سعيد حسن بحيري – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – ط: (١) سنة ٢٠٠٨ / ص٢٠.

بناءٍ ثقافيٍّ عامٍّ معبِّرٍ عن مراحل تطور المجتمع؛ ولذا فإنَّ الشعرَ لا يُعبِّرُ عن ذات الشاعر فحسب، بل يُعبِّرُ عن روح عصره أيضًا "[١].

والشاعرُ يُعبِّرُ عمَّا يدورُ من حوله من أفراحٍ وأتراحٍ، فهو " يعي العالمَ وعيًا جماليًّا، ويُعبِّرُ عن هذا الوعي تعبيرًا جماليًّا، ومن هنا كان الشعرُ " بنيةً لغويةً معرفية جمالية "، وأي تحديدٍ لهذه البنية من أي عنصرٍ من عناصرها يُعدُّ إخلالًا بمفهوم "الشعر" أو انحرافًا به، إنَّ وحدةَ النص الشعري لا تقبلُ التجزئةَ أو التحليلَ إلى شكلٍ ومعنًى، فالمعنى شكلٌ تحوَّل إلى معنى، والشكلُ معنًى تحوَّل إلى شكلٍ"[٢].

وممَّا سبق ذكره آنفًا يتضحُ أنَّ مصطلحَ "رؤية العالم" لا يُوجِدُ فصلًا بين الموقف والتشكيل الفني، الشكل والمضمون، الرؤية والأداة، حيث إنَّ " الشاعر إنسانٌ أولًا، وهو بهذه الصفة الأولى يعيشُ وينفعلُ ويفكرُ ويعملُ، وتتكونُ له من خلال هذه المستويات المختلفة من الحياة بنيةٌ بشريةٌ تختلفُ عن غيرها، وهو في مرحلة الإبداع الفني ينظرُ في ذاته؛ ليرى من خلالها الكون والكائنات، فلا بُدَّ عندئذٍ أن تتحوَّل التأثيراتُ الفكريةُ المختلفةُ إلى دمٍ يجري في أوعية نفسه ... ينبغي أن يتمثَّلَ الشاعرُ أفكارَه؛ لتتحوَّلَ في نفسه إلى رؤًى وصورٍ، كما يتمثَّلُ النباتُ ضوءَ الشمس؛ ليتحوَّلَ إلى خضرةٍ مظللةٍ وزاهيةٍ، فالشاعرُ لا يعرضُ آراءً، ولكنَّه يعرضُ رؤيةً " [٣].

فالإبداعُ أو أيُّ نتاجٍ أدبيٍّ يُعدُّ تجسيدًا لرؤية العالم، فهو يُعبِّرُ عن رؤيةٍ جماعيةٍ، وليست رؤيةً فرديةً،" فالفئةُ الاجتماعيةُ ومفاهيمها الثقافيةُ هي التي تفرضُ

١- شعرنا القديم والنقد الجديد – وهب أحمد روميه – عالم المعرفة – مارس سنة ١٩٩٦ / ص١٧٩.

٢- السابق / ص٢٤.

٣- ديوان صلاح عبد الصبور– صلاح عبد الصبور – دار العودة – بيروت ط: (٢) سنة ١٩٧٧ / ص٦٢.

نفسَها على الكاتب، وليس العكس، والكاتبُ العظيمُ هو الذي يملكُ رؤيةً كونيةً تُعبِّرُ عن أقصى وعيٍ لتوجيهات الفئة أو الطبقة الاجتماعية " [١].

والشاعرُ هو ابنُ بيئته ومجتمعه الذي يعيشُ فيه، فهو جزءٌ منه، يحملُ في طياته رؤيةَ العالم الذي يعيشُ فيه وينتمي إليه، فهو محكومٌ بالفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها، وعاداتها وتقاليدها، بوصفه عضوًا منها، يُعبِّرُ عن جماعته، ويترتبُ على ذلك أنَّ أهمَّ شرطٍ من شروط "رؤية العالم" أنَّها جماعيةٌ بالضرورة، أي: تنتجُ من ذاتٍ مجاوزةٍ للفرد الذي تحتويه، فتجربةُ الفرد وحدةٌ قصيرةٌ ومحدودةٌ جدًّا، فلا تستطيعُ خلقَ رؤية العالم التي هي من صنع ذاتٍ جماعيةٍ مجاوزةٍ للفرد الذي هو – بالقطع – طرفٌ فاعلٌ فيها، ضمن المجموعة الاجتماعية التي ينتمى إليها " [٢].

لا شكَّ أنَّ العالمَ مليءٌ بالصراعات والتناقضات، والشاعرُ ابنُ بيئته ومجتمعه، فهو ليس بمعزلٍ عن هذا، فتأثَّر شعراءُ هذه المرحلة بمواقفَ ورؤًى، فـ" كانت لهم رؤيتُهم الخاصةُ، ونقدُهم للمجتمع، وتمردُهم عليه، أو على الأقل اقتحام ظواهر هذا المجتمع، وإعطاء تفسيرٍ لها، ومنذ ذلك الحين أصبح المجتمعُ موضوعًا للتأمل، فأصبح الشاعرُ يُحلِّلُ التجاربَ الموجودةَ حوله، ويسمو بها، أو بمعنًى آخرَ يُعطينا تقريرًا عن التجربة " [٣].

فيدورُ مصطلحُ "رؤية العالم" حول ثلاث دوائرَ من الدلالة، " أولاها: الدلالةُ الحسيةُ التي تُشيرُ إليها "رؤية العالم" مؤكدةً الرؤيةَ البصريةَ أو النظر إلى ما يقعُ في مدى الإبصار من مفردات العالم التي يمكنُ أن يشيرَ البعضُ منها إلى الكل على

١- تأصيل النص – المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان – مركز الإنماء الحضري – حلب – ط (١) سنة ١٩٩٧ /ص١٥.

٢- رؤية العالم – عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر – جابر عصفور – المركز الثقافي العربي – ط: (١) سنة ٢٠٠٨ / ص١٦.

٣- موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي – محمد زكي العشماوي – دارالنهضة العربية – بيروت – سنة ١٩٨١/ص١٨١.

سبيل المجاز المرسل، وهذه الدائرةُ الحسيةُ ليست المقصودةَ في سياق النقد الأدبي الذي نحن بصدده، أمَّا الدائرةُ الثانيةُ، فهي الدائرةُ المجازيةُ التي تنتقلُ فيها الدلالةُ من الإبصار الحسي إلى النظر العقلي، وقد جاء الرأيُ من الدلالة المجازية للرؤية، وذلك على النقيض من الدلالة الحسية أو الحرفية التي منها: فلانٌ حسنُ المرأى، أي: المنظر .... أمَّا الدائرةُ الدلاليةُ الأخيرةُ، فهي التي تنتقلُ فيها الدلالةُ من المجازي إلى الروحي، ومن الوعي إلى اللاوعي؛ تعبيرًا عن بعض الرغبات الممنوعة، في مدى استبدال مبدأ الرغبة بمبدأ الواقع " [١].

وممَّا سبق يتضحُ أنَّ لدراسة "رؤية العالم" في شعر أبي إسحاق والشريف الرضي أهميةً كبيرةً في دراسة شعر الشاعرين، وذلك من خلال الكشف عن دلالات البنية للنص الشعري والحياة السياسية والاجتماعية ... ويقتضي ذلك الوقوفَ على النصوص الشعرية لديهم، وما تتضمَّنُه هذه النصوصُ من مضامينَ لدى أشعارهما، وينتقلُ الشاعرُ من دائرة الهموم الذاتية إلى دائرة الهموم المجتمعية، ثم دائرة الوجود الإنساني، مع ملاحظة تداخل تلك الدوائر، مع ملاحظة تفاعل الدوائر الثلاث، ويأتي جابر عصفور قائلًا: " وأتصورُ –أخيرًا– أنَّ المدخلَ الأسلمَ لاكتشاف "رؤية العالم" بنوعيها الدالين على الرؤية والرؤيا هو البدءُ من الأعمال الأدبية بوصفها دواليَ تقودُ شبكاتِ مدلولاتها العلائقية إلى دلالاتٍ متجاوبةٍ، حرةً غير مقيدةٍ يمكنُ أن تُطلقَ عليها "رؤية العالم" [٢].

١– موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي – محمد زكي العشماوي / ص٥، ٦.

٢– ينظر: السابق / ص١٦، ١٧.

المبحث الأول

الرؤية السياسية والاجتماعية في مخيلة الشاعرين "بين التباين والتلاقي"

يملكُ الشاعرُ حسًّا مرهفًا، وفكرًا ثاقبًا، حيث صوَّر الشاعران في قصائدهم الحياةَ السياسيةَ للعصر العباسي (الأيوبي)، محاولين الوقوفَ على معرفة الأشعار التي قيلت، حيث اقتصرت الرؤيةُ السياسيةُ على الممدوح.

أمَّا الرؤيةُ الاجتماعيةُ، فانقسمت إلى:

- أحوال المجتمع وما استشرى فيه من فساد.
- التهنئة بالمناسبات.

أولًا- الرؤية السياسية:

ازدهرت الدولةُ العباسيةُ ازدهارًا لم تبلغْه في أي عصرٍ مضى، " وقد نقل العباسيون عاصمةَ الدولة بعد نجاح ثورتهم من دمشق إلى الكوفة ثم الأنبار، قبل أن يقوموا بتشييد مدينة بغداد؛ لتكونَ عاصمةً لهم، والتي ازدهرت .... وأصبحت أكبرَ مدن العالم وأجملها، وحاضرةَ العلوم والفنون، ولكنَّ نجمَها أخذ بالأفول مع بداية غروب شمس الدولة العباسية ككل، ونقل المعتصمُ عاصمةَ الدولة من بغداد إلى سامراء التي أطلق عليها: (سُرَّ مَن رأى)، ثم أُعيدت إلى بغداد بعد أربعين سنة"[١].

وكانت الحياةُ في العصر العباسي الأول مزدهرةً، حيث لعب العلماءُ دورًا كبيرًا، ونظروا -باهتمامٍ- إلى الخلفاء، حيث كانوا يدركون أهميةَ الدور الذي يقومُ به الخلفاءُ في حياة الأمة، فقد حاز الخلفاءُ مكانةً كبيرةً في نفوس العلماء، ليس ذلك فحسب، بل عمل العلماءُ من خلال: المواعظ، والخطب، وحلق العلم، والمصنفات التي أخرجوها على تعميق مكانة الخلفاء في نفوس الناس، وحثِّهم على توقيرهم واحترامهم [٢].

١- دولة بني العباس – العصر العباسي الأول (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) – محمد على أبو زهرة – سلسلة تقريب التراث الإسلامي إلى القارئ المعاصر – الكويت سنة ٢٠٢٣ / ص ٢.

٢- ينظر: دور العلماء في الحياة السياسية والاقتصادية في العصر العباسي الأول – عبد الحكيم عبد الحق محمد – رسالة دكتوراه – كلية الآداب – جامعة المنصورة – مصر سنة ٢٠٠٤ / ص١١٤، ١١٥.

وخلال فترة تولي الخليفة المأمون واجهتْه بعضُ الثورات والاضطرابات، " حيث نشبت الثوراتُ والاضطراباتُ التي استمرَّ بعضُها منذ فترة نزاعه مع أخيه الأمين وحتى مقتله، وبعضها استمرَّ بعد اعتلاء المأمون عرشَ الخلافة، وزاد على ذلك تبرم الأهالي من ظلم الولاة وعدم استقرار الأمن والأمان، والتي كان على المأمون مجابهتها، والقضاء عليها" [١].

ونجدُ الشاعرين يصوران الحياةَ السياسيةَ خيرَ تصويرٍ، فأكثروا في المدح، وخصَّا بالمدح مَن كانت لهما علاقةٌ بهما من الخلفاء والوزراء، فمن أمثلة ذلك: قول أبي إسحق الصابئ مادحًا الوزير المهلبي:

لهجت يمينك بالندى فبنانها ... أبدًا يفيض على العفاة عطاءَ
حتى فُصدت وما بجسمك حاجةٌ ... كيما تسبب للطبيب حباءَ
ولقد أرقت دماً زكيًا من يدٍ ... حقنت بتدبير الأمور دماءَ
يجري العلا في عرقة جري النّدى ... في عوده فهو اللباب صفاءَ
لو يقدر الأحرار حين أرقته ... جعلوا له حب القلوب وعاءَ[٢]

صوَّر الشاعرُ في الأبيات السابقة جودَ ممدوحه وكرمَه، وهو يُعطي حتى في إراقة دمه، ودماؤه جزءٌ ممَّا يجودُ به، حيث قام بحقن الدماء وفض المنازعات والمشاحنات، يقول: إنَّ الناسَ لو قَدَّرت ثمنَ الدمِ الذكي الذي يسيلُ لجعلت من قلوبها أوعيةً له، واتضحت الرؤيةُ السياسيةُ في توضيح دور القيادة السياسية النموذجية، وما تتمتعُ به من حكمةٍ وعطاءٍ وتضحيةٍ، وحبِّ الناس لها؛ وذلك بسبب عدله وسياسته المتزنة والعادلة، فقلوبُهم مستودعٌ لمحبته.

١- الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية والثقافية في عصر الخليفة المأمون (١٧٠-٢١٨هـ) – خالد محمدأحمد بديوي – رسالة ماجستير – كلية البنات – عين شمس – مصر سنة ٢٠٠١ / ص٣٦، ٣٧.

٢- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر – أبو منصور الثعالبي – تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد – مكتبة الحسين التجارية – د . ت) / ٢ : ٢٧٤.

ويقول في عضد الدولة:

أهـــــلًا بـأشرف أوبـة وأجلّها لأجـلّ ذي قـدم يلاذ بـنعلِهـــا
شـاهنشـــــاه تـاج ملته الـتي زيـدت بـه في قـدرها ومحلِّهـــا
يـا خير مَنْ زهت المنابر بـاسمـــه في دولـة علقت يـداه بـحبلهـــا
وأقمت فينا سيـرة عضديـــة هيهات لا تـأتي الملوك بمثلِها
يـردى غـويٌّ فـاجرٌ في بـأسهـــا ويـعيش بـرٌّ صـالح في فضلِها
مولاي عبدك حـالفٌ لك حلفـةً يـعيى مناكب يـذبل عن حملِها
طـوبى لـعينٍ أبصرتك ومَنْ لهـــا بـغبارِ دارك جـازياً عـن كحلِها؟[1]

يمدحُ الشاعرُ في الأبيات السابقة عضدَ الدولة، معظمًا قدرَه، ذاكرًا محاسـنَه التي يفتخرُ بها الخطباءُ على المنابر في خطبهم، فهو مَن استطاع أن يُحافظَ علـى رعيته، ولا يستطيعُ أحدٌ من الملوك أن يفعلَ ما فعله، فقضى على كل فاجرٍ، كمـا أنَّه يُجيرُ المستغاثَ في اللجوء إليه، فهنيئًا لعينٍ اكتحلت من غبار داره، فجمع بـين الحزم والعدل، ومن خلاله تحقَّق الازدهارُ واستقرارُ البلاد، وعمَّ الخيرُ على العباد، فكانت علاقتُه وطيدةً بشعبه.

ويقول في مدح الوزير المهلبي:

لَّما وضعتُ صَحيفتي في بطنِ كفّ رسولها
قبّلتها لمسّتهـــا يُمناك عند وصولهـا
وتودّ عيني أنهـــا قرنت ببعضِ فُصولها[2]

مدح الشاعرُ في الأبيات السابقة ممدوحَه (المهلبي)، فحينما وضـع الشـاعرُ الصحيفةَ (الرسالة) في يد الرسول، قبَّلها مودعًا إياها، متمنيًـا أن تحمـلَ وتُعبِّـرَ الرسالةُ عن مشاعره وأفكاره التي يريدُ إيصالَها وإبلاغَها إلى الممدوح، وفي تقبيله للرسالة يكونُ الشاعرُ قبَّل يدَ ممدوحه عن بعدٍ.

١- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر / ٢ : ٢٧٤.

٢- السابق / ٢ : ٢٧٥.

ويقول في مدح المهلبي:

قُــل لِلوَزيرِ أَبي محمَّــدٍ الَّــذي ... قد أعجزت كلّ الورى أوصافه

لكَ في المجالسِ منطقٌ يشفي الجوى ... ويسوغ في أُذن الأديب سلافهُ

وكأنّ لفظـك لــــؤلؤٌ متنخــلٌ ... وكأنّما آذاننـــا أصدافــهُ [1]

هذه الأبياتُ حملت بين طياتها تمجيدًا للوزير المهلبي، ودوره في إرساء دعائم الحكم، وما كان يتمتعُ به من حكمةٍ وبلاغةٍ، وحكمتُه تمثَّلت في سرعة اتخاذ القرار السياسي، فهو قائدٌ فريدٌ لا يُضاهيه أحدٌ في سياسته وحكمته، وكانت له مكانةٌ كبيرةٌ بين النخب السياسية والعلمية لبلاغته وفصاحته.

ومدح الوزير المهلبي، قائلًا:

وكَم من يدٍ بيضاء حازت جمالها ... يد لَك لا تسود إلا من النقــسِ

إذا رقشت بيض الصّحائف خلتها ... تطرز بالظلماءِ أردية الشّمسِ[2]

وصف الشاعرُ في البيتين السابقين ممدوحَه بأنَّ يدَه بيضاءُ، ولا يشوبُها السوادُ إلَّا عند الكتابة، فتلك اليدُ التي تميَّزت بالعطاء هي عند الكتابة تطرزُ الصحائفَ البيضَ، وكأنَّها خيوطٌ سوداءُ تمَّ تطريزُها على أثواب الشمس، فركَّز من خلال مدحه على دور هذه الشخصية في تحقيق العدالة والإنجازات التي حقَّقها في عصره، وما كان يتمتعُ به من كرمٍ، وحكمةٍ، ودقةٍ في اتخاذ القرار، وهذا كلُّه يعكسُ لنا شخصيةَ القائد المثالي.

ويقول في مدح الشريف الرضي:

أبا كُل شَيء قيل في وصــفهِ حــسن ... إلى ذَاك ينحــو مــن كنــاكِ أبــا الحَســن

فَوحدها للاختِصار إشــــــارةُ ... إلــي جُملــة تفصيلهــــا لــك مُرتهــن

تخولتها في خلقــــةٍ وخليقــــة ... فــإن لم تَكُــن أنــت الخَليــق بهــا فمــــن

١- زهر الآداب وثمر الألباب لأبي اسحق القيرواني ت / محمد محي الدين عبد الحميد – دار الحبيل – بيروت – ط: (٤) – (د.ت) / ١ : ١٨٠.

٢- السابق / ٢ : ٢٧٣.

وما هي إلا كُنية لك إرثهـــــا وإن مَســها مــن غــيرِ أربابهــا الـــدرن
ولو أن في تحريمها لي قُـــدرة لمــا أصــبحت في غــيرِ بيتــكَ تمتهـــن
ألستُ لها بعد الموصي وآلـــــه وأنتم أناس فيكم المجد قد قطـــــن [١]

يقول الصابئ: لقد استطاع الشريفُ الرضيُّ بكنيته "أبا الحسن" أن يجمعَ كلَّ أوصاف الحسن، وهي إشارةٌ بليغةٌ بأنَّه صاحبُ خلقٍ وخليقةٍ، ولا يُوجدُ مَن يستحقُّ هذه الكنيةَ غيره، كما ركَّز في مدحه على الصفات التي تتمتعُ بها هذه الشخصيةُ ، حيث جمع بين الولاء والوراثة والأخلاق، وهذا يعكسُ لنا دورَ القيـــادة السياســية الشرعية، وما يجبُ أن تتمتعَ به.

وقد عاش الشريفُ الرضيُّ في الأحداث المضطربة داخل الدولة العباســية، ومن خلالها تحوَّل مجرى التاريخ، فصارت الدولةُ العباسيةُ عبارةً عــن دويــلاتٍ متعددةٍ، كلُّ دويلةٍ مستقلةٌ بذاتها عن الأخرى، وأصبح لكلِّ دويلةٍ إدارتُها، وجندُها، وأمراؤها، وقضاؤها " [٢].

وحدث صراعٌ مذهبيٌّ بين السنة والشيعة تجاوز حدودَ الجدل المذهبي بــين الفريقين، ووصل الأمرُ إلى نشوب فتنٍ طائفيةٍ خلفت الدمارَ في الــبلاد، وأدخلــت الويلاتِ إلى السكان الأبرياء[٣].

فنرى شاعرَنا يستنكرُ ما حدث، ويُحمِّلُ الحكامَ مسؤوليةَ ما يحــدثُ، بســبب تقاعسهم عن الإصلاح، فيقول:

خُطوبٌ لا يُقاوِمُها البَقـــاءُ وَأَحوالٌ يَدِبُّ لَها الضَـــــراءُ
وَدَهرٌ لا يَصُحُّ بِهِ سَقيـــمُ وَكَيفَ يَصُحُّ ، وَالأَيّـــامُ داءُ

١- زهر الآداب وثمر الألباب لأبي اسحق القيرواني / ٢ : ٣٠٣.

٢- الحياة الأدبية في العصر العباسي – محمد عبد المنعم خفاجي – دار الوفاء للنشر والتوزيــع – ط: (١) سنة ٢٠٠٤ / ص٢٥، ٢٦ .

٣- ينظر: النجوم الزاهرة – ابن تعزي بردي – دار الكتب المصرية / ٤ : ١٠٨ .

وَأَملاكٌ يَرَونَ القَتلَ غُنمـــاً وَفي الأَموالِ لَو قَنِعـــوا فِداءُ
هُمُ اِستَولَوا عَلى النُجَباءِ مِنّـا كَما اِستَولى عَلى العـودِ اللِحاءُ[1]

وهذا حدث نتيجةَ تدهور الحياة السياسية والفكرية والعلميـة والاجتماعيـة، ولكن كان عند الشريف الرضي حلمٌ لا يخفيه، وهو تطلعه إلى الخلافة والمناصب، فيرى نفسَه أحقَّ به من غيره، ولكنَّ الظروفَ الاجتماعيةَ والتاريخيةَ تحـولُ دون بلوغه إليها، ولكن لا يُندِّدُ بما كان يحدثُ في المجتمع العباسي، بـل كـان ينـادي بالإصلاح، ومجمل القول: إنَّ الأبياتِ حملت في طياتها نقدًا عميقًا للواقع السياسـي والاجتماعي، وما ساد في هذه الفترة من فسادٍ وفوضى وقتلٍ، كلُّ هذه الأفعالِ كانت من ممارسات الحكام والساسة، ممَّا جعل الاستياءَ يعمُّ الأنحاءَ من هذه الممارسات.

ويقول في مدح الخليفة الطائع:

لك ذروة البيـت المعـ ـظم ، والأباطح والحِجون
أتَرى أميـنُ الله إلا مَن لـهُ البلـد الأميـن
لله دُرك حيـثُ لا تَسطو الشِمال ولا اليَمين
والأمرُ أمـركَ لا فم يوحي ولا قَـول يبين
لمّا رأيتـكُ في مقا مٍ يُستطار به الركيـن[2]

من خلال الأبيات السابقة اتضحت الرؤيةُ السياسيةُ في توضيح دور القيـادة السياسية الحاكمة التي جمعت بين الحزم، والاستقرار، والشرع، والهيبة، والعـدل، فهو قائدٌ وقدوةٌ يُحتذَى به في كلِّ شيءٍ.

ويقولُ -أيضًا- في مدح الخليفة الطائع لله:

جَزاءُ أَميـرِ المُؤمنينَ ثَنائي عَلى نِعَمٍ ما تَنقَضي وَعَطـاءِ
أَقامَ اللَيالي عَن بَقايا فَريسَتي وَلَم يَبقَ مِنها اليَومَ غَيرُ ذَماءِ

١- ديوان الشريف الرضي – دار صادر للطباعة والنشر – بيروت سنة ١٩٦١ / ١ : ٣٦ .
٢- ديوانه / ٢ : ٥٢٦.

وَأَدنى أَقاصي جاهِهِ لِوَسائِلي وَشَدَّ أَواخي جودِهِ بِرَجائِـي
وَعَلَّمَني كَيفَ الطُلوعُ إِلى العُلى وَكَيفَ نَعيمُ المَرءِ بَعدَ شَقاءِ[1]

فهو يثنى على أمير المؤمنين، وهو يستحقُّ الثناء؛ فهو يُعطي ويجودُ، فهو أهلٌ للعطاء والكرم، فتمتع أميرُ المؤمنين بصفاتٍ قياديةٍ حكيمةٍ ساعدت في تحقيق العدالة بين شعبه، ووجود علاقةٍ وطيدةٍ معهم، وتحقيق الأماني لهم، فعمَّ الرخاءُ والاستقرارُ في البلاد.

ويمدح الملك بهاء الدولة:

بِالجَدِّ لا بِالمَساعي يُبلَغُ الشَرَفُ تَمشي الجُدودُ بِأَقوامٍ وَإِن وَقَفوا
أَعيا مِنَ الدَهرِ خُلقٌ لا دَوامَ لَهُ البَذلُ وَالمَنعُ وَالإِنجازُ وَالخُلُفُ
واطٍ بِجَفوَتِهِ أَعقابَ خُلَّتِهِ يَوماً وَدودٌ وَيَوماً مَلَّةٌ طَرِفُ[2]

مدح الشاعرُ في الأبيات السابقة ممدوحَه بأنَّه ينالُ الشرفَ بالجدِّ، وليس بالمساعي، ومجد الأقوام يكونُ بالجدود وإن توقفوا، كما ينتقدُ الشاعرُ الواقعَ، والتقلباتِ الزمنيةَ ودورَها في تشكيل السلطة، وقد تظهرُ التناقضاتُ واضحةً وجليةً في سلوك الساسة والحكام.

ويقول في الطائع ويهنئه بعيد الفطر:

ما أُسر بمالٍ لا أعز به ، ولا ألذ برأي فيه تَفنيد
ليَس السّراء بغير المجدِ فائدة ، وما البقاءُ بغيرِ العِز مَحمود
جراح الحمام و لا جُرح الأذى أبداً ، و الموت عند طروق الضّيم مورود
صَارت إليك، أمير المؤمنين، على غرّاء أحرزها آباؤك الصّيد[3]

وضَّح الشاعرُ في الأبيات السابقة من خلال مدحه عزةَ نفسه في سبيل المجد لا في سبيل الحصول على المال والهبات، وهذا دليلٌ واضحٌ أنَّ مدحَه لم يكن من

١- ديوان الشريف الرضي / ١ : ٩.
٢- السابق / ١ : ٥.
٣- السابق / ١ : ٢٧، ٢٨ .

أجل التكسب، بل كان مدحُه ردًّا للجميل، وعرفانًا بالعمل الطيب، وليس العكس، فجميلُ الممدوح سابقٌ نظمَ القصيدة، ويليه الاعترافُ بهذا الجميل، فليس المدحُ عنده استجداءً سابقًا يُؤدِّي إلى الفعل الجميل، وسبب هذا أنَّ الشريفَ الرضي لم يكن بنكرةٍ، بل كان علمًا في ميادينَ مختلفةٍ، وكان حريًّا بهؤلاء الممدوحين إكرامُه لضروراتٍ واضحةٍ تتصلُ بشخصيته الذاتية، وبمنزلته السياسية، والاجتماعية، والدينية، والأدبية[1].

ويقول في الخليفة الطائع:

مُلكًا بَني العَبّاسِ، فالرّا ... جي مقامكمُ غبين
ما فيكمُ إلاَّ الـ ... ـدُّ عَلى عَظَائِمِهَا مَرُونُ
حَتّى يَزُولَ فُحُولُهَا ... منكم وقد دانوا ودينوا
عكفوا على العلياء ما ... فيهم على مجدٍ ضنين[2]

يمدحُ الخليفةَ العباسيَّ بصفاتٍ وكأنَّه نال مرادَه بهذا الإجلال والتكريم، وأنَّ العباسيين أحقُّ بالخلافة من غيرهم.

ويُلحظُ من خلال ما سبق أنَّ أبا الصابئ ركَّز في مدحه على الأوصاف المعنوية لممدوحه من: كرمٍ، وجودٍ، وغيرها من الأوصاف، وكان مدحُه لابن بويه، وتقلّده عدَّة مناصبَ في عصره، وخاصةً في عصر المطيع لله العباسي، وكذلك الشريف الرضي مدح الخلفاءَ، وخاصةً مدح الطائعَ بعد تخليص والده من الاعتقال، ولم يكن المدحُ عند الشريف الرضي من أجل التكسب، فكانت مدائحُه شاهدًا على اشتباكه في المعارك السياسية، التي كانت تثورُ في فارس، وفي العراق، فأكثرُ

١- شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية – عبد اللطيف عمران – دار الينابيع – دمشق – ط: (١) سنة ٢٠٠٠ / ١٨٧ ، ١٨٨ .

٢- ديوانه / ٢ : ٥٢٥ .

ممدوحيه كانوا يتذوقون الشعرَ، والأدب، والبلاغة، وأكثرهم كانوا من الفتيان الأبطال، الذين يعشقون جلالَ الصفات[١] .

ومدح الشريفُ الرضيُّ لأصحاب وأرباب السلطة، " لم يكن رغبةً في منفعةٍ رخيصةٍ بخسةٍ، وإنَّما كان هدفًا إلى خدمة وطنه الذي جار عليه الزمنُ آنذاك؛ لأنَّ الرضيَّ خلال حياته شهد صراعاتٍ سياسيةً كثيرةً " [٢].

بينما الصابئ كان لديه هدفٌ وطموحٌ سياسيٌّ، وقبل التعرض لهذه اللمحات عن حياته لا بُدَّ لنا أن نقفَ عند خبرٍ مهمٍّ يدلُّ على طموح صاحبنا أبي إسحاق، الذي شاءت المقادير أن يسقطَ من عليائه، ويتدحرجَ عن مراتب المجد [٣].

إذن المدح عند الصابئ كان من أجل إرضاء طموحه، ورغبته في الوصول[٣].

فوضَّحت الرؤيةُ السياسيةُ في شعر أبي إسحاق الصابئ، والشريف الرضي العلاقةَ بين الحاكم والمحكوم، وتحقيق العدالة والمساواة بين الشعوب، وكذلك التركيز على الكرم والحكمة في القيادة السياسية، بينما ركَّز الشريفُ الرضيُّ على القيم الدينية والأخلاقية أكثر من أبي الصابئ.

الهجاء

يُعدُّ الهجاءُ من الفنون الشعرية التي عرفها الشعرُ منذ القدم، وهو ذكرُ المعايب، والنيل من الخصم، واقترن الهجاءُ في العصر الجاهلي بقصائد المدح والفخر؛ لأنَّ القصيدةَ العربيةَ لم يكن فيها أيُّ تخصصٍ بالنسبة للأغراض الشعرية،

١- ينظر: عبقرية الشريف الرضي – زكي مبارك / ١ : ١٤٢.

٢- مكانة الشريف الرضي بين شعراء المديح – محمد جواد إسماعيل غانمي – على سبهيار – مجلة التراث الأدبي – العدد (٦) السنة الثانية سنة ١٣٨٩ / ص٣.

٣- أبو اسحاق الصابئ – سيرة وفنًا – عبد القادر حسن أمين – مجلة كلية الآداب – جامعة بغداد – ع (١٨) سنة ١٩٧٥ / ص١٥.

والهجاءُ في القديم ربَّما جاء في قصيدة مدحٍ افتتحها صاحبُها بالنسيب، ونجدُ هذا بالفعل في قصيدة الأعشى التي يهجو فيها الحارثَ بن وعلة [١] .

أمَّا الهجاءُ في العصر العباسي، فقد اتجه ناحيةَ التحضر والتطور؛ نظرًا لتطور الحياة في شتى مناحيها، حيث إنَّ " الشاعر الهجَّاء تلزمُه ثقافةٌ واسعةٌ ودقيقةٌ عن المجتمع، مجتمع قبيلته، والقبائل الأخرى، ويلزمُه –أيضًا– مصادرُ موثوقةٌ يعلمُ من خلالها سقطاتِ الناس وعوراتِهم؛ لكي يفتقدَ الصدق، فيقترب كلامه من كلام العامة؛ فينبذ، فالعربُ تعتدُّ بالحقائق، ولا تعبأُ بكلام السفلة ... والشاعرُ الهجَّاءُ يجبُ أن يعلمَ ذلك، وما يقولُه الشاعرُ لا يُعتبرُ انطباعًا ذاتيًّا، وإنَّما هو صلبُ المعاناة الاجتماعية " [٢] .

هذا الثراءُ الثقافيُّ، والانفتاحُ على الآخر أتاح للشعراء مساحةً واسعةً في التعبير عن مشاعرهم، وعواطفهم الكامنة بأسلوب ناقدٍ، فإذا نظرنا إلى شعر الهجاء عند أبي اسحاق الصابئ نجدُه بمنزلة نقدٍ اجتماعيٍّ أكثر من كونه هجاءً، يقول في إنسان شريف الأصل، وضيع النفس:

قُل للشَريف المُنتمي ... للفّر من سرواتهِ
آبائه وجدودهُ ... والزهرُ من أماتهِ
وهو الوضيع بنفسهِ ... وعيوبه وهناتهِ
والظّاهر السوءات في ... أخلافهِ وصفاتهِ
لا تجرين من الفخا ... رِإلى مَدى لم تأتهِ [٣]

١– اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري – محمد مصطفي هدارة – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٦٣م، ص٤٢١ .

٢– فن الهجاء في شعر العصر العباسي الأول – سعد علي جعفر المرعب – الرضوان للنشر والتوزيع – عمان – ط: (١)– سنة ٢٠١٦م /ص٣٠ .

٣– يتيمة الدهر – التعالبي / ٢ : ٢٨٦ .

أراد الشاعرُ أن ينتقدَ الإنسانَ الكريمَ الأصل من أجل تقويم ذاته، وعدم رضوخه وإذعانه للمذلة والتهوين من نفسه أمام الآخرين، وعليه بالتحلِّي بالأخلاق الكريمة، فتحديد مكانة وقيمة الإنسان في أخلاقه وسلوكه، كما يُوجدُ تناقضٌ واضحٌ بين الأخلاق والنسب، وتكمنُ القيمةُ الحقيقيةُ لأي إنسانٍ على أفعاله وسلوكه.

ويقول في اللواط ومَن يمارسونه:

لَحاجةُ المرء في الإدبار إدبار والمائلون إلى الاحرار أحرار

يُبْدِي اللواط مغالطاً وعجانه أبداً لأعواد الورى مُستهدف

فَكَأَنّهُ ثعبان مُوسَى إِذْ غَدا لِحبالهمِ وعصيهم يتلهف[1]

عكس الشاعرُ في الأبيات السابقة بعضَ السلوكيات الاجتماعية التي تناولت موضوعًا حسَّاسًا بأسلوبٍ ساخرٍ، مستخدمًا أسلوبَ التلميحِ؛ لتوصيل الفكرة، ممَّا جعل الأبياتِ تحملُ طابعًا هجائيًّا، ونقديًّا واضحًا.

ويهجو في موضعٍ آخرَ، قائلًا:

أيها النابح الذي يتصدّى بقبيح يقوله لجوابي

لا تؤمل أنّي أقول لكَ: أخسأ لست أسخو بها لكلّ الكلاب[2]

وضَّح الشاعرُ دُنوَّ منزلته، وهي منزلةُ الكلاب، فنعته بالدناءة والخسة، فمنزلتُه أدنى من منزلة الكلاب؛ لأنَّ بعضَ الكلاب يكونُ عندها وفاءٌ، فهنا ينتقدُ الشاعرُ بأسلوبٍ ساخرٍ عدوَّه، هذا العدو هاجمه، ولكن يجبُ ضبطُ النفس، والتحلِّي بالأخلاق والصبر والجلد، وعدم الاهتمام بالأعداء، وإعطاء مكانة لهم أكثر ممَّا يستحقون.

ويُلحظُ من خلال الأبيات السابقة أنَّ هجاءَ أبي إسحاق الصابئ كان متباينًا بين الجدة والإقذاع، فلم يسرْ على وتيرةٍ واحدةٍ مع قِلَّته.

١- ديوانه / ١ : ١٥٥.

٢- يتيمة الدهر – التعالبي / ٢ : ٢٨٤.

كما ورد الهجاءُ عند الشريف الرضي مخالفاً لسابقه، حيث ورد الهجاءُ عنده بألفاظٍ نقيةٍ، فلم يستبحْ لنفسه ألفاظَ الذم " وممَّا امتاز به شعرُ الشريف الرضي أنَّه نقيٌّ من كل ما يتعاطاه الشعراءُ من الغزل المشين، والهجاء المقذع، والتلون بالمدح تارةً، والذم أخرى " [1].

فلم يُكثر الشريفُ الرضيُّ من غرض الهجاء؛ تعفُّفاً، وكان يصبرُ على إيذاء الآخرين، ولكن في بعض الأحيان يسخرُ منهم، يقول في ذم مغنٍّ باردٍ قبيحِ الوجه:

ومروّع لي بالسّلام، كأنّما ... تسليمه فيما يمضّ وداع

تغفى بمنظره العيون إذا بدا، ... وتقيء عند غنائه الأسماع

أبذاك نستشفي، ومن نغماته ... تتولّد الآلام والأوجاع

أم كيف يطربنا غناء مشوّه ... أبدا نهال بوجهه ونراع [2]

المهجو في الأبيات السابقة هو مغنٍّ فاشلٌ، قبيحٌ حينما تراه تُغمضُ عينيك، وفي صوته آلامٌ تُؤلمُ مَن أمامَه، وكيف يُطربُ غناءُ مشوَّهٍ، ويُرعبُ شكلُه الناظرين؟! فالناسُ تزوي وجوهَها؛ هربًا من صوته؛ لأنَّ صوتَه فيه ضجيجٌ للأسماع، حتى يظنَّ سامعوه أنَّ كلامَه سبٌّ وشتمٌ، فينتقد الشاعرُ شخصًا ينفرُ الناسُ منه، فبعضُ الأشخاص يكونون عبئًا على مَن حولهم، والعلاقاتُ الاجتماعيةُ – أحيانًا– تكونُ ثقيلةً، فعادةً ما تلتقي بشخصٍ أشبهَ بالفراق والوداع.

ويقول في ذم الزمان:

فأين من الدهّر استماع ظُلامتي ، ... إذا نُظرتْ أيامه في المظالم

فهل نافعي أن ينصر المجد عزمتي ... على هذه العلياء، والمال ظالمي

.....

وآخذ ثاري من زمان تعرضت ... مَغَارِمُهُ بَيْني وَبَينَ المَغَانِمِ

١– أعيان الشيعة – السيد محسن أمين – تحقيق: حسن الأمين – دارة التعارف للمطبوعات – بيروت – لبنان سنة ١٩٨٣ / ٩ : ٢١٧.

٢– ديوانه / ١ : ٤٦٤.

وما نام إغضاءً عن الدهر صارَمي ولكنني أبقي على غير راحـــم
وإن أنا أهلكت الزمان فمـــا الذي يصدّع عزمي في صدور العظائم
وركب سرواً والليل ملقٍ جرانـــه على كل مغبّر المطالع قاتـــم (١)

يهجو الشاعرُ الدهرَ الظالمَ، هذا الدهرُ لا يعرفُ العدلَ، يُعطي اللئامَ، ويأخـذُ من الكرام، ويتوعدُ الشاعرُ بأخذ ثأره منه، فهو لم ينمْ حتى يثأرَ منه، فيُوجدُ صراعٌ بين الإنسان والزمان، وهذه رؤيةٌ فلسفيةٌ عميقةٌ لدى الشاعر تبـرزُ مـن خلالهـا التحولاتُ السياسيةُ والاجتماعية، فالعالمُ مليءٌ بالصراعات، ولكن مـا زال الظلـمُ والصراعُ مستمرًّا، وأنَّ القوةَ الماديةَ أقوى بكثيرٍ من القـيم والمبـادئ، والإنسـانُ يصيرُ في طريقٍ مجهولٍ، ومصيرُه مليءٌ بالمخاطر والتحديات.

ويهجو بني أمية بسبب ما فعلوه في العلويين، قائلًا:

أترى درت أنّ الحسين طريـــدة لقنا بني الطّرداء عند ولادها
كانت مآتم بالعراق تعدّهـــا أمويّة بالشّام من أعيادهـــا
ما راقبت غضب النّبيّ، و قد غدا زرع النّبيّ مظنّة لحصادهـــا
باعت بصائر دينها بضلالهـــا، وشرت معاطب غيّها برشادها (٢)

يهجو الشاعرُ في الأبيات السابقة بني أمية؛ لقتلهم الحسين، وبعد قتله اتخذوا من ذكراه عيدًا، وهم لم يراعوا في قتله النَّبيَّ ﷺ، ولم يلقوا بالًا لغضبه ﷺ؛ لأنَّهـم باعوا دينَهم بضلالهم، فبئس ما ادَّخروا ليوم الميعاد، فهو يتحدَّثُ عن مشـهدٍ مـن مشاهد الظلم، منتقدًا إياه، وأنَّ الأحداثَ التي تجري تُؤَوَّلُ وتُفسَّـرُ علـى حسـب المصالح، وأنَّ الجورَ هو جزءٌ من الصراعات السياسية.

وخلاصة القول: فقد كان أبو إسحاق الصابئ يميلُ في هجائـه إلـى النقـد اللاذع، مصوِّرًا الأمراضَ، والعيوبَ المستشريةَ في المجتمع، بينمـا كـان هجـاءُ الشريف الرضي من أجل الإصلاح الاجتماعي.

١- ديوان الشريف الرضي / ٢ : ٢٨٢.

٢- ديوانه /١:٣٦٢ .

الرؤية الاجتماعية

هناك أسبابٌ عدَّةٌ تُفسِّرُ حقيقةَ ما وصل إليه حالُ الخلافة العباسية من ضعفٍ، من بينها تلك الفجوةُ الكبيرةُ التي كانت تُفضِّلُ النظامَ العباسيَّ، وعلى رأسه الخليفة عن السواد الأعظم من الشعب، ولإخفاق العباسيين في تحقيق ما كانوا يدعون إليه من شعاراتٍ، على رأسها الدعوة إلى الإصلاح"[١].

ومع تطور ظروف الحياة الاجتماعية تطورت العلاقاتُ بين الناس في المجتمع الواحد، وإذا نظرنا من خلال الأشعار التي أوردها الشريف الرضي في ديوانه نجدُ ظروفَ هذه الحياة تُساعدُ على انتشار شعر المدح.

وقد ارتبطت الرؤية السياسية بالرؤية الاجتماعية؛ لأنَّ مجتمعَه كان مضطربًا سياسيًّا من الداخل والخارج؛ لذا كان لا بُدَّ أن يضطربَ اجتماعيًّا، وتختلَّ القيمُ فيه. فإذا كانت صورةُ الحياة السياسية متشابكةَ الخطوط متعددةَ الجوانب ... فإنَّ صورةَ الحياة الاجتماعية تعتمدُ في تكوينها على الصورة السابقة نفسها ... فقد تنوعت –في ذلك الوقت– في بغداد البني الاجتماعية[٢]، حيث يُصوِّرُ الشريفُ الرضيُّ حالَ الواقع الاجتماعي، فيقول:

وَدَهرٌ لا يَصُحُّ بِهِ سَقيمُ ... وَكَيفَ يَصُحُّ وَالأَيّامُ داءُ
وَأَملاكٌ يَرَونَ القَتلَ غُنماً ... وَفي الأَموالِ لَو قَنِعوا فِداءُ
هُمُ اِستَولَوا عَلى النُجَباءِ مِنّا ... كَما اِستَولى عَلى العودِ اللِحاءُ
مُقامٌ لا يُجاذِبُهُ رَحيلٌ ... وَلَيلٌ لا يُجاوِرُهُ ضِياءُ[٣]

صوَّر الشاعرُ في الأبيات السابقة المجتمعَ بأنَّه مريضٌ بسبب الناس، وهم داءٌ، هذا الدهر هو الذي أفسد كلَّ صحيحٍ، فهو سقيمٌ، لا شريفَ فيه، انتشر فيه

١– الحياة الاجتماعية في العراق زمن البويهيين – حورية عبده سلام – دار العالم العربي مدينة نصر – القاهرة – ط: (١) سنة ٢٠٠٩ / ص١٠، ١١.

٢– شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية – عبد اللطيف عمران/ ص٦٧، ٦٨.

٣– ديوان الشريف الرضي / ١ : ٣٦ .

القتلُ، سيطرت الأموالُ على أصحاب العقول، وأصبح كلُّ شيءٍ مقلوبًا في هذا المجتمع، ويُلقي الضوءَ على الظلم الذي يسودُ المجتمع، حيث سادت الأمراضُ الاجتماعيةُ في مجتمعه، في عالمٍ مليءٍ بالتناقضات، وكلُّ هذا يُعبِّرُ عن رؤيةٍ اجتماعيةٍ سوداويةٍ.

ويقول فيما كان يحدث في بغداد:

أرى تَرك الصّلاة بها حلالًا ، فما امتضائها مَاء الطُهور

وكيف تتم في بلدةِ صلاة ، وجل بقاعهُ قبل الفجُور

ألا حَظ في جوانبها رجالًا ، فأعرفُ من أرى غير النظير

تغمض عن وجوههم الدزاري ، وتحب فيهم غرر البدور[1]

عُرفت بغداد عاصمة الخلافة العباسية في زمن الشريف الرضي بألوانٍ من: الفجور، والخلاعة، والمجون، فوضح من خلال الأبيات السابقة أنَّ الصلاةَ متروكةٌ في بغداد، وكيف تحلُّ الصلاةُ وتُصبحُ حلالًا في بلدٍ أُحلَّ فيه الفجورُ؟! فعبَّر شاعرُنا عن الواقع الأليم الذي يعيشُ فيه، بما يحويه من تهاونٍ في القيم الدينية، وغياب العادات والقيم والمبادئ والقدوة، وانتشر الفسادُ في عالمٍ مليءٍ بالتناقضات الاجتماعية والازدواجية.

ويثورُ الشريفُ الرضيُّ على عادات تقاليد مجتمعه، فيقول:

نَبّهتُهُم مِثلَ عَوالي الرِماح إلى الوَغى قَبلَ نُومِ الصّباح

فَوارِسٌ نالوا المُنى بِالقنا وَصافَحوا أَعراضَهُم بِالصِفاح

لغارَةٍ سامِعُ أَنبائِها يَغَصّ فيها بِالزَلالِ القَرّاح[2]

قام الشريفُ الرضيُّ بتنبيه أبناء عصره؛ لإفاقتهم وإيقاظ ضمائرهم من ضرب الباطل واستئصال جذور الاضطرابات، وتمجيد البطولة والفروسية والتضحية والإقدام في المعارك، والمخاطرة بكل غالٍ ونفيسٍ، وكلُّ هذه القيمِ يُقدِّرُها المجتمعُ، ويحمدُها.

١- ديوانه / ١ : ٤٤٣ ، ٤٤٤.

٢- السابق / ١ : ٢٥٤ .

وما ذكره الشريفُ الرضيُّ جانبٌ مظلمٌ من الحياة الاجتماعية في بغداد، إلَّا أنَّ هناك جانبًا مضيئًا أشار إليه الشاعرُ في ديوانه، مثل تهنئة الطائع بالله بعيد الفطر، قائلًا:

الآنَ أَعرَبَتِ الظُنونُ وَعَلا عَلى الشَكِّ اليَقينُ
وَارتاحَتِ الآمالُ في أَطرافِها جَذَلٌ وَلينُ
مِن غُمَّةٍ كَاللَيلِ شا بَ لَها الذَوائِبُ وَالقُرونُ
وَاليَومَ بانَ لِناظِري ما أَثمَرَت تِلكَ الغُصونُ[1]

وضَّح الشاعرُ التغيراتِ الاجتماعيةَ التي كان لها تأثيرٌ على أفراد المجتمع، فالتغيراتُ تحوَّلت من الغموض إلى الوضوح، ومن القلق إلى الاستقرار، ومن السلبيات إلى الإيجابيات.

وقال يمدح الوزير ابن أزدشير:

ما نال مدحي أبو نصر بنائلة، ولا بسلطان ترغيب وترهيب
إلّا بشيمة بسّام وتكرمة غرّاء تعدل عندي كلّ موهوب
أنت المعين على أمر تصاوله، وحاجة شافهتنا بالأعاجيب
ومثل سمعك يدعوه إلى كرم، قول تشيّعه أنفاس مكروب[2]

يقول: إنَّ مدحَه لأبي نصر ليس من أجل النيل والعطاء، أو الخوف منه، أو التقريب إليه؛ وإنَّما لما كان يتمتعُ به من شيمٍ وأخلاقٍ، فهو المعينُ وقتَ الشدة.

ممَّا سبق يتضحُ أنَّ الشريفَ الرضيَّ لم يكن راضيًا عن العادات والتقاليد التي كان يعيشُها، فلا يشغلُ نفسَه باللهو والمجون كما شغل غيره، وإنَّما صرف أمرَه إلى طلب المعالي والمجد، وانتهج سلمَ العلم والعلماء.

ويقول أبو إسحاق الصابئ في تهنئة وتقديم هديةٍ:

تهن بهذا اليوم واحظ بخيره وكن ابدًا بالعود منه على وعدِ

١- ديوانه / ٢ : ٥٢٤ .

٢- السابق / ١ : ٦٣ .

أَرى الناس يَهدون هدايا نفيسة إليك ولم يترك لي الدّهر ما اهدي
سُوى سُكر يَحلو لك العيش مثله وآسٍ أخي عمر كَعُمرك ممتد
وبينهما من ضربِ قُومك درهم وأبيات شِعر من ثنائي ومن حمدي
فإن كُنت ترضى ما به انبسطت يَدي وتَقبلهُ مني فَهذا الذي عِندي [١]

يقومُ الصابئ بتقديم الهدايا مثله مثل غيره من الناس، إلَّا أنَّه مرَّ بضائقةٍ ماليةٍ، جعلته لم يستطعْ تقديمَ هديةٍ ماديةٍ، وإنَّما استطاع تقديمَ هديةٍ معنويةٍ، وهو لم يفعلْ ما فعله الناسُ من تقديم هديةٍ ماديةٍ، فخرج عن المألوف، وكانت هديتُه أبياتًا من الشعر، والدعاء له بطول العمر والثناء والحمد، عكست الأبياتُ قِيمًا اجتماعيةً في مجتمعه، مثل: الاحتفال بالمناسبات السعيدة، وتقديم الهدايا، ولكن كانت هديتُه ليست ماديةً، بل كانت معنويةً، وهذا يعكسُ التفاوتَ الاقتصاديَّ بين طبقات مجتمعه، ومن القيم السائدة في المجتمع التواضعُ في العلاقات، فالرضا، والقناعةُ -أيضًا- من القيم المهمة التي تُثري العلاقاتِ الإنسانيةَ في المجتمعات.

ويقول مهنِّئًا الوزيرَ المهلبيَّ:

أسيدنا هُنّئت نعمك بالفطرِ ووقيت ما تَخشاه من نوبِ الدهرِ
مَضى الصّوم قد وفيته حق نسكهِ ووفاك مكتوب المَثوبة والأجر
كلفتَ بذكرِ الله فيه فلا تزل من الله فيما ترتجيه على ذكرِ [٢]

يُهنِّئُ الشاعرُ في الأبيات السابقة الوزيرَ بمناسبة شهر رمضان، وما يقومُ به من عباداتٍ، من: صيامٍ، وتلاوة القرآن، وقيام الليل، كما عكست الأبياتُ الاحتفاءَ بالقيم الدينية، والاحتفال بالمناسبات (عيد الفطر)؛ للتعبير عن السعادة، وكذلك الذكر لتحقيق الطمأنينة، وكلُّ هذا يُعزِّزُ من الروابط الاجتماعية في المجتمع.

١- يتيمة الدهر – الثعالبي / ٢ : ٢٨١ .

٢- السابق / ٢ : ٢٧٦ .

ويقول أيضًا:

حرمتُ مأكلها علينا واغتدت	حلاً لوحشِ القفر والبيداء
هذي مناسكك التي قضيتها	بالسيفِ أو بالصعدةِ السمراء
ووراء ذلك للعفاة منائح	هَطلت هطول الديمة الوطفاء
ومواهب ومناقب ومفاخر	ومآثر أوفت على الإحصاءِ[1]

صوَّر الشاعرُ في الأبيات السابقة ما فعله عضدُ الدولة بأعدائه، وأصبحت جثثُهم في المعركة كأنَّها أضاحي العيد قام بذبحها عضدُ الدولة، وهي بمثابة مناسك يفعلُها، ولكنَّ هذه الأضاحيَ تمَّ توزيعُها على الوحوش، ولم توزع على البشر، فهي محرمةٌ على مَن قتلهم، كما صوَّر حالَ أهل الأعداء في أحزانهم، وهم يبكون على مَن فقدوا في المعركة، بحال جيش عضد الدولة، والذي لا يمكنُ إحصاءُ مناقبهم، ومفاخرهم، ومآثرهم، ومن خلال الأبيات السابقة اتضحت الرؤيةُ الاجتماعيةُ في أنَّ القيمَ الاجتماعيةَ، والتي تتمثَّلُ في: الكرم، والتضحية، والفروسية، وأنَّ الفروسيةَ ليست قتالًا، بل لا بُدَّ من وجود جوانبَ إنسانيةٍ أخرى بجوارها، من: رحمةٍ، وأفعالٍ نبيلةٍ؛ حتى تتركَ أثرًا طيبًا في المجتمع.

وممَّا سبق يتضحُ أنَّ الصابئَ هنَّأ، وسَئِم -أيضًا- من حياته، وعانى من أهل زمانه، لأنَّه تعرَّض للظلم، كما كان مع الشريف الرضي "وقد رأيتم أنَّ هذين الصديقين كانا يتقارضان الشكايةَ، فإنْ تحمَّلَ الصابئُ شكا عنه الشريفُ، وإنْ شكا الصابئُ واساه الشريفُ ... "[2].

كما يُلحظُ أنَّ الشاعرين كانا مقرَّبين من الساسة العباسيين، وكلاهما نقد الظواهرَ الاجتماعيةَ السلبيةَ الموجودةَ في المجتمع، ولكن وُجد اختلافٌ بينهما، تمثَّل في أنَّ أبا إسحاق الصابئ كان مرتبطًا بالعباسيين أكثر، حيث إنَّه تولَّى ديوانَ الرسائل، والرضي كان أكثرَ تعبيرًا عن آرائه بحريةٍ.

١- يتيمة الدهر / ٢ : ٢٧٨ .

٢- عبقرية الشريف الرضي – زكي مبارك – مؤسسة هنداوي – سنة ٢٠١٧ / ص٢٥٤ .

المبحث الثاني

المرأة والطبيعة في مخيلة الشاعرين

-المرأة في مخيلة الشاعرين:

للمرأة مكانةٌ كبيرةٌ على مرِّ العصور، ولكن لُـوحظ أنَّ الأدبَ كـان جـلَّ تصويره التركيزُ على جمالها، وما يرتبطُ بالجمال، فتحدَّث الشعراءُ عنهـا، وعـن مفاتنها، ومحاسن جسدها، فيقومون ببثِّ أشواقهم، ومشاعرهم من خلال أشـعارهم، ولا شكَّ أنَّ الغزلَ من الفنون الشعرية المهمة، وأعلقُ الفنون الشعرية بالقلب؛ فتكادُ لا تخلو منه قصيدةٌ جاهليةٌ، فكلُّ الشعراءِ بدأوا مـدحَهم، وأهـاجيَهم، ومـراثيَهم بالغزل، تحدَّثوا عن ديار أطلال الأحبة، عن السعاة والعذاب، وعن القرب والبعد[١].

كما يُعدُّ الغزلُ من الفنون التي نالت مكانةً كبيرةً لدى الشريف الرضي، فـ" كان يُحبُّ ويعشقُ، وقد اتسع عصرُه وبلدُه لسماع ما قال في الحب والعشق، ولكنَّه مع ذلك حبس عواطفَه في قفصٍ من حديدٍ؛ لأنَّ المجتمعَ العراقيَّ على تسامحه لـم يكن يبيحُ لمثله غيرَ التجمُّلِ، والتوقُّرِ، والاستحياءِ؛ فكان الشريفُ الرضـيُّ يُسـقَى منابتَ الظرفِ من مزاجه الرقيق بقراءة ما ينظمُ معاصروه من أشعار المجون "[٢].

وكان يُركِّزُ في غزله على الطهر والعفة، ولم يقعْ في الحسبان حينما يتغزَّلُ كما فعل غيرُه من الشعراء، ولكنه كان يُركِّزُ على المثل العليا من: شجاعة، وكرم، ووفاء، فـ" كان للشريف الرضي مذهبٌ في العشق، وفي أنشطةٍ سياسيةٍ وفكريةٍ كثيرةٍ تتوفَّرُ إمكانيةُ صياغةِ المذهب، أمَّا في العشق، فإنَّ صياغةَ مـذهبٍ للعشـق عملٌ مذهلٌ.

١- الغزل في الشعر العربي – سراج الدين محمد – ذو الراتب الجامعية – بيروت – لبنـان (د.ت) / ص٨ .

٢- عبقرية الشريف الرضي – زكي مبارك / ص٢٧٨ .

وقد توصَّل الشريفُ الرضيُّ إلى رسم مذهبه في العشق من خلال تجربتــه الواقعية المثيرة، ويبدو أنَّ ثراءَ شخصيته كان يدفعُ به في كلِّ اهتمامٍ إلى أقصاه"[١].

فيقول متغزلًا:

يا ظَبيَةَ البانِ ، تَرعى في خَمائِلِهِ ... لِيَهنَكِ اليَومَ أَنَّ القَلبَ مَرعــاكِ
الماءُ عِندَكِ مَبذولٌ لِشارِبِـــــهِ ... وَلَيسَ يُرويكِ إِلّا مَدمَعي الباكي
هَبَّت لَنا مِن رِياحِ الغَورِ رائِحَــةٌ ... بَعدَ الرُقادِ عَرَفناها بِرَيّــاكِ
ثُمَّ اِنثَنَينا إِذا ما هَزَّنا طَــرَبٌ ... عَلى الرِحالِ تَعَلَّلنــا بِذِكراكِ[٢]

يتحدَّث الشاعرُ عن فتاةٍ أصابته بنظراتها، فأسرت فؤادَه، وفجَّــرت عينيــه دموعًا باكيةً يرويها، وقلبه مرعًى لها، وهبَّت الرياحُ برائحةٍ طيبةٍ عرفها الجميــعُ، حيث عكست الأبياتُ تجربةً إنسانيةً صادقةً، ويجــبُ علــى المحــبِّ أن يُضــحِّيَ بالمشاعر، مجسِّدًا لمشاعره الجياشة من خلال استخدام الطبيعة، وهي التي تبعــثُ الحبَّ، والحنينَ، والشوقَ في نفوس المحبين.

ويقول:

وَباتَ بارِقُ ذاكَ الثَغرِ يوضِحُ لي ... مَواقِعَ اللَثمِ في داجٍ مِنَ الظُلَــمِ
وَبَينَنا عِفَّــةٌ بايَعتُها بِيَــدي ... عَلى الوَفاءِ بِها وَالرَعيِ لِلذِمَــمِ
يُوَلِّعُ الطَلُّ بُردَينا وَقَد نَسَمَت ... رُوَيحَةُ الفَجرِ بَينَ الضالِ وَالسَلَمِ[٣]

صوَّر الشاعرُ في الأبيات السابقة أسنانَ المحبوبة بوميض البرق ونورٍ يهديه، وأنَّ الجمالَ يمكنُ أن يكونَ مشعًّا حتى في الظروف الصــعبة، فمحبوبتُــه وفيــةٌ وعفيفةٌ، ويجعلُ فيها لمعًا وبياضًا في نسمات الفجر من الشجر، فحاول الشاعرُ أن

١- الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي – عزيز السيد جاسم دار الأندلس للنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ط: (١)- سنة ١٩٨٦ / ص١٠٣.

٢- ديوان الشريف الرضي / ٢ : ١٠٧.

٣- ديوان الشريف الرضي / ١ : ٢٧٤ .

يُقدِّمَ لنا تجربةً إنسانيةً فريدةً من خلال انسجامه مع الطبيعة الخلابة، كما حاول أن يُوازنَ بين العاطفة والقيم الموجودة.

ويقول:

يا لَيلَةَ السَفحِ أَلّا عُدتِ ثانِيَــةً سَقى زَمانَكَ هَطّالٌ مِنَ الدِيَــمِ

ماضٍ مِنَ العَيشِ لَو يُفدى بَذَلتُ لَهُ كَرائِمَ المالِ مِن خَيلٍ وَمِن نَعَمِ

لَم أَقضِ مِنكِ لُباناتٍ ظَفِرتُ بِها فَهَل لِيَ اليَومَ إِلّا زَفرَةُ النَــدَمِ (١)

استرجع الشاعرُ في الأبيات السابقة ليلةً من الليالي الخوالي، وهي من ليالي السفح، فهي تُمثِّلُ أجملَ اللحظات التي قضاها، فيتمنَّى عودتَها، كما يحنُّ إلى ماضيه، ويُراجعُ ذكرياتِه، ويتأمَّلُ في الأيام التي لا تعودُ.

يُلحظُ ممَّا سبق أنَّ شاعرنا امتازت أشعارُه بالعفة، وكانت بعيدةً كلَّ البعدِ عن الغزل الحسي، على عكس أبي إسحاق الصابئ الذي دارت أشعارُه الغزليةُ حول الولع والشكوى، فيقول:

فديت من لاحظني طرفها من خيفة النَّاس بتسليمته

لما رَأَتْ بدر الدجى تائهاً وغاظها ذَلك من شيمتــه

نضت لَهُ البرقع من وَجهِهَا فَردَّتْ الْبَدْرإِلَى قِيمَتــه (٢)

أشار الشاعرُ إلى محبوبته، فهي كالبدر في الدجي، حينما أزالت البرقعَ عن وجهها، كما يدعو إلى تفاعل الإنسان مع جمال الطبيعة المحيط به، وإظهار مشاعره وعواطفه الدفينة، ولكنَّ هذه المشاعرَ حينما تظهرُ يجدُ نفسَه محاطًا بقيودٍ اجتماعيةٍ من حوله، وأنَّ الجمالَ الحقيقيَّ يظهرُ، ويكونُ أكثرَ وضوحًا عندما يكشفُ عن ذاته.

١- ديوان الشريف الرضي / ١ : ١٤٩ .

٢- معجم الأدباء – ياقوت الحموي / ١ : ١٤٩.

ويقولُ في موضعٍ آخرَ:

حَذرت قَلبي أن يعود إلى الهوى ... لما تبدل بالنزاع نزوعَا

فأجابني لا تخش مني بعدما ... أفلت من شركِ الغرام وقوعا

حَتى إذا داع دُعاه إلى الهوى ... أصغى إليه سَامعا ومُطيعا

كذبالةُ أخمدتها فَكما دنا ... منها الضرام تعلقته سريعا[1]

حذَّر الشاعرُ في الأبيات السابقة من العشق وعواقبه، حيث يُؤدِّي إلى المرض، ولا يستطيعُ أن يفلتَ من شرك الغرام، فحينما يدعوه داعي الهوى يُصغي إليه، ويُلبِّي دعوتَه مطيعًا، فعكس لنا تجربةً إنسانيةً، ووضَّح الصراعَ بين العقل والعاطفة، ولكنَّ القلبَ يذهبُ نحو الهوى، ومع هذا الصراع إلَّا أنَّ العواطفَ الإنسانيةَ لا تختفي تمامًا، بل تترقبُ الفرصةَ السانحةَ؛ لكي تعودَ مرةً أخرى.

ويقول:

لستُ أشكو هَواك يامن هَواه ... كُل يوم يروعني منهُ خَطب

مر مَا مر بي من أجلكِ حلة ... وعذابي في مثلِ حُبك عذب[2]

لم يشكو الشاعرُ من المصائب، وكلُّ ما مرَّ به من مصائبَ، وخطبٍ، فهو حلوٌ في سبيل محبوبته، والعذابُ من أجلها وفي حبها عذبٌ، كما عكست تناقضًا واضحًا بين الألم واللذة في الحب، وتحويل العذاب إلى تجربةٍ فريدةٍ، وأنَّ المحبَّ لمَن يُحبُّ مطيعٌ، وأنَّ العواطفَ والمشاعرَ تحملُ بين طياتها المعاناة ممزوجةً بالسعادة.

ويقول:

أيُها اللائم المضُيق صَدري ... لا تَلُمني فكثرةُ اللوي تُغري

قَد أقَام القوام حُجة عِشقي ... وأبان العذار في الحُب عُذري[3]

١- يتيمة الدهر – الثعالبي / ٢ : ٢٥٧ .

٢- السابق / ٢ : ٢٥٦.

٣- السابق / ٢ : ٢٥٦.

وجَّه الشاعرُ اللومَ إلى لائميه على ما وقع فيه، فكلٌّ مَن يلوموه يغريه لومُهم، فيكونُ العذابُ في الحب ممتعًا، والحبُّ الحقيقيُّ يجعلُ الإنسانَ يتقبَّلُ الآلامَ والآهاتِ، وأنَّ المشاعرَ والعواطفَ الإنسانيةَ عادةً ما تكونُ خارجَ إرادة الإنسان، ولا يستطيعُ الوقوفَ أمامَها ومقاومتها.

ويقول في موضعٍ آخرَ:

طيب عيشي فِي عناقك ووفاتي فِي فراقــك
أَنْت لي بدر فَلَا عِشْـــ ت إلى يَوْم محــاقك
فاسقني الصّهْبَاء صرفًا أَو بمزج من رياقك[1]

يعيشُ الشاعرُ مع محبوبته في هناء، وحينما تُفارقُه فهو كحــال الأمــوات، فالمحبوبةُ كالبدر في لحظة اكتماله، وإذا ذهبت، ورحلت عنه اختفى القمرُ طالبًا أن يشربَ الخمرَ؛ حتى ينسى، ولا يريدُ الماءَ ما دام في عناقٍ مع المحبوبة.

ممَّا سبق يُلحظُ شيوعُ العاطفة الجياشة في غزله، فالمرأةُ بالنسبة له الــدفءُ والبرودةُ، السحرُ والفتنةُ، فعكس التناقضَ بين الفرح والحزن، وهذا موجــودٌ عنــد أغلب شعراء الغزل، ووصف المحبوبةَ بأوصافٍ من الطبيعة؛ ليمزجَ بــين الحــب والطبيعة.

ولم يكن الحديثُ عن المرأة من الأغراض البارزة عند الشاعرين مع وجــود العفة والطهارة، وعند التصريح لم يذكر اسمها عند الشريف، على عكس الصابئ؛ فقد ذكرها صراحة، وذكر المفاتن الحسية فيها.

وخلاصة القول: إنَّ الشاعرين عبَّرا عن مشاعرهما وعواطفهمــا، فصــوَّرا المحبوبةَ كرمزٍ للرقة والجمال، واستخدما الطبيعةَ في وصف جمالها، بينما اختلفــا في أنَّ أبا إسحاق الصابئ كان أكثرَ انفتاحًا في معجمه الشعري، فكان بعيــدًا عــن القيود الدينية الإسلامية، فهو ينتمي إلى الصابئة، والشريف الرضي كــان محاطًــا بالقيود الدينية الإسلامية من: عفَّةٍ، وطهارةٍ، ووفاءٍ عند تصويره للمحبوبة.

١- يتيمة الدهر – الثعالبي / ٢ : ٢٥٩.

الطبيعة في مخيلة الشاعرين

ذخر شعرُ الطبيعة في العصر العباسي بأهميةٍ كبيرةٍ، حيث إنَّ الطبيعةَ " هي الملهمُ الأولُ لكلِّ كاتبٍ، وكلِّ شاعرٍ، بل هي الملهمُ الأولُ لكلِّ فنٍّ من الفنون، كذلك كانت ولا تزال، ولن تزال ... وإلهامُ الطبيعةِ الناسَ يختلفُ باختلاف أمزجتهم، ومراكزهم في الحياة، وأحوالهم من: الصحة، والمرض، والغني، والفقر، وطبائع نفوسهم المتفاوتة بين الرضا والثورة وبين الطاعة والتمرد " [1].

وتعدَّدت الأشياءُ التي وصفها الشاعران ما بين ماديةٍ ومعنويةٍ متنوعةٍ، فيقولُ –واصفًا المطر–:

لا زَالَ مُرْتَجِزُ الرّعُودِ مُجَلْجِلٌ	هَزِجُ البَوَارِقِ مُجلِبُ الضّوْضَاءِ
يرغو رغاء العود جعجعه السرى	وَيَنُوءُ نَوْءَ المُقرِبِ العُشَرَاءِ
يقتاد مثقلة الغمام كأنما	ينهضن بالعقدات والأنقاءِ
يهفو بها جنح الدجى ويسوقها	سوقَ البِطَاءِ بِعاصِفٍ هَوْجَاءِ
يرميك بارقها بأفلاذ الحيا	وَيَفُضّ فِيكَ لَطائِمَ الأنْدَاءِ[2]

وصف الشاعرُ في الأبيات السابقة المطرَ المصحوبَ برعدٍ، فهو ثقيلُ الحمل كالعشراء تارةً، وككثيب الرمل الذي تسوقُه الرياحُ العاصفةُ في أجواءٍ مليئةٍ بالرياح، والبرق، والرعد تارةً أخرى، حيث استخدم الطبيعةَ وما فيها من تحدياتٍ تصعبُ على الإنسان، وفيها كذلك البرق والرعد والعواصف، كلُّ هذه الأشياءِ تحملُها الطبيعةُ بين جنباتها، ولكن لا يُمكنُ السيطرةُ عليها، بل هي خارج إرادته.

ويقولُ –في موضعٍ آخرَ واصفًا السحاب–:

سَما كَبُطونِ الأُتنِ رَيعانُ عارِضٍ	تَزَجّيهِ لَوثاءُ النَسيمِ جَنوبُ
رَغا بَينَ دَوحِ الوادِيَينِ بِرَعدِهِ	رُغاءَ مَطايا مَسَّهُنَّ لُغوبُ

١– شعر الطبيعة في الأدب العربي – سيد نوفل – مطبعة مصر – سنة ١٩٤٥ / ص: و.

٢– ديوان الشريف الرضي / ١ : ٢٩.

بَصيرٌ بِرَمي القَطرِ حَتّى كَأَنَّـــهُ عَلى الرَملِ قاريُّ السِهامِ نَجيبُ
تَدافَعَ أَمّـــا بَرقُهُ فَصَـوارِمٌ جَـــلاءً وَأَمّا عَرضُـهُ فَكَثيـبُ
إِذا ما أَراقَ الماءَ أَسفَرَ وَجهُـــهُ وَيَغدو بِعِبءِ الماءِ وَهوَ قَطـوبُ
سَهِرتُ لَهُ نابي الوِسادَةِ بَرقُـــهُ يَحومُ عَلى أَعناقِهِ وَيَلـــوبُ[1]

وصف الشاعرُ في الأبيات السابقة السحابَ، وشبَّهه ببطون الأتن التي تسوقُه ريحُ الجنوب، وشبَّه الرغدَ برغاء المطايا، وكذلك القطر يتساقطُ كالسهام، وشبَّه البرقَ بالصوارم، وشبَّه العرضَ بالكثبان الرملية، وقد استلهم، واستوحى من الظواهر الطبيعية البرقَ، والرعدَ، والعواصفَ، وهنا دعوةٌ من الشاعر للتأمُّل والتدبر في جمال الطبيعة، وعظمتها، ومدى تأثيرها على الإنسان، فهو ابنها وهى حاضنةٌ له.

وانتقل الشاعرُ من وصف السحاب والمطر إلى وصف الحيوانات، فقال – واصفًا الخيل–:

تقود الخيل أرشق من قنـاها شوازب كالقداح من السّـراء
غارات كولغ الذّئب تتـرى، على الأعداء بيّنة العـداء
عزائم كالرّياح مررن رهـوا، على الأقطار من دان ونـاء
وقلب كالشّجاع يسور عزمـا ويجذب بالعلى جذب الرّشـاء
وكفّ كالغمام يفيض حتـى يعمّ الأرض من كلأ ومـاء[2]

وصف الشاعرُ في الأبيات السابقة خيلَ الإغارة، أو المقاتلة وهي تقاتلُ الأعداءَ، وما تتصفُ به من عزيمةٍ قويةٍ، فهي كالذئب تغيرُ على الأعداء، ولديها عزيمةٌ كالرياح سريعة، ووصف قلبها بالشجاع، ثم ينتقلُ إلى وصف الممدوح وما يتمتعُ به من كرمٍ، وكفه كالغمام ... إلخ، ومن خلال هذا وضَّح الشاعرُ القيمَ الاجتماعيةَ من: كرمٍ، وشجاعةٍ، وعزيمةٍ، كما أنَّه استلهم، واستوحى الحيواناتِ من

١– ديوانه / ١ : ٢٨٧ ، ٢٨٨.
٢– السابق / ١ : ١٥.

الطبيعة المحيطة به، مثل :الذئب، والخيل، وربطها بالقيم، حيث ضرب المثلَ بالخيل في البيت الأول في رشاقتها، وفي البيت الثاني شبَّه الغاراتِ بهجوم الذئب، وفي الثالث شبَّه العزيمةَ بأنَّها تتحرَّكُ كالرياح.

ويقول في وصف الذئب:

طوى نفسه وانساب في شملة الدّجى، وكلّ امرئ ينقاد طوع المطامع

إذا فات شيء سمعه دلّ أنفه، وإن فات عينيه رأى بالمسامع

تظالع حتّى حكّ بالأرض زوره، وراغ، وقد روّعته، غير ظالع (١)

وصف الشاعرُ في الأبيات السابقة حركةَ الذئب، وربط الشاعرُ بين حركة الذئب وبيئته، ولأي إنسانٍ طموحٌ ورغباتٌ يسعى لتحقيقها، ولكنَّه يُواجهُ الحياةَ ومصاعبَها، ولا بُدَّ أن يتكيَّفَ معها ومع مواقفها المختلفة، ويجبُ عليه أن يكونَ مرناً، حتى وإن اضطر إلى التظاهر بذلك أو المراوغة.

ويقول في وصف الطير:

أقول لها، وقد رنّت مراحا، لبالك يا حمامة غير بالي

تباعد بيننا من قيل شاك تعلّق بالغرام، وقيل سالي

تريع إلى درادق عاطلات، وهنّ بعيد آونة حوالي

لها صنع يطول على طلاها، قلائد لا تفصّل باللآلئ (٢)

وصف الشاعرُ في الأبيات السابقة الحمامةَ، حينما دار حوارٌ بين الحمامة وبينه، وربط بين الطيور متمثلةً في الحمامة وحالته العاطفية، وأنَّ تفاعلَه مع الطبيعة وعناصرها، فهو رمزٌ للحب والجمال، ويُلحظُ ممَّا سبق أنَّ الشاعرَ تعرَّضَ في نظمه للحيوان، والمطر، والسحاب، والبرق ... الخ، فيقول في موضعٍ آخرَ:

تزوّد من الماء النّقاخ، فلن ترى بوادي الغضا ماء نقاخا ولا بردا

ونل من نسيم الرّند والبان نفحة فهيهات واد ينبت البان والرّندا

١- ديوانه / ١ : ٦٦١.

٢- السابق / ٢ : ٢٥١.

وعج بالحمى عينا، فلست برامق طوال اللّيالي ذلك العلم الفـــردا
وكرّ إلى نجد بطرفـــك إنّـــه متى يعد لا ينظر عقيقا ولا نجدا[١]

يدعو الشاعرُ في الأبيات السابقة إلى جمال الطبيعة فلا يُوجدُ مكانٌ أجملَ من مكان عيشته، والرائحة الطيبة لنسيم الرند ولبان، فهيهات أن يُوجدَ في البلاد التـــي يُسافرُ إليها، حيث تُوجدُ علاقةٌ بين الشاعر، والطبيعة، والأماكن التي تحمـــلُ لـــه ذكرياتٍ عاطفيةً جميلةً، فهو كثيرُ الحنين إليها، وإلى الأيام الخوالي.

حاول الشاعرُ من خلال ما سبق أن يتلاعبَ بعناصر الطبيعة، وجـــاء أبـــو اسحاق في وصف الطبيعة وعناصرها، قائلًا في الورد:

أما ترى الـــورد قد حيّاك زائرُهُ بنفحة فرجت عن كل مصدور
كأن أنفاسه أنفاسُ غانيـــة معشوقة خالطت أنفاسَ مخمور
تفتّحت وجناتٌ في جوانبه كأنّما انتزعت من أوجه الحور[٢]

وصف الشاعرُ في الأبيات السابقة الوردَ، فرائحتُه كأنفاس الغانية المتعطرة، الممتزجة بأنفاس المخمور، والورد حينما يتفتحُ في فصل الربيع، مثل: الحور فـــي منظره، كما وضَّح الشاعرُ تأثيرَ الطبيعة على النفس، فهي مصدرٌ للجمال والراحة النفسية، ولا يقلُّ تأثيرُها على النفس عن تأثير الساحر على الإنسان.

ووصف مدخنة البخور:

جَمعت من حِيلتي وعُرفي ما بين حَسن وبين طِيبِ
أدخل في الذيلِ من محبِ طوراً وفي الكم من حبيتِ
فَكـــم تِردد بين هـذا وذا برغـم من الرتيـبِ[٣]

يبدو أنَّ الشاعرَ تأثَّر بالمجالس، وما كان يتمُّ وضعُه فيه من مداخن البخور، حيث صوَّر الشاعرُ المدخنةَ بإنسانٍ حسن الوجه طيب الرائحـــة، وحينمـــا وضـــع

١- يتيمة الدهر / ١ : ٣٩٧ ، ٣٩٨.
٢- السابق / ٢ : ٢٦٢.
٣- السابق / ٢ : ٢٦٢ .

البخورَ في المدخنة انبعثت منه رائحةٌ طيبةٌ، وأصبح الشاعرُ متردِّدًا بين عبق الطيب، ومنظرها الجميل.

وقال في النرجس:

رب يَوْم نقعت فِيهِ غليلي ... وهمومي بَين الضلوع كمون

بِوُجُوه مَمْلُوءَة بعيون ... وعيون تخشى عَلَيْهَا الْعُيُون

تِلْكَ من نرجس نضير وهذي ... من غوان وجدي بِهِن جُنُون (١)

وضح الشاعرُ تأثيرَ الجمال على النفس، فالجمالُ يُخفِّفُ من أعباء وآلام الحياة؛ لأنَّ الحياةَ مليئةٌ بالهموم، ومحفوفةٌ بالمخاطر، ولكنَّ الجمالَ يُخفِّفُ من وطأة هذه الهموم، فالحبُّ والعاطفة يُؤثِّران على العاطفة الإنسانية من خلال وجود النساء الجميلات.

ووصف الصابئ طائرًا، فقال:

أنعت طَارونية الثِّياب ... لابسة خزاً على الإهابِ

تَصبغت تَصبغ التصابي ... وأبَرزت وجهاً بلا نقابِ

رَيان من محاسنِ الشّباب ... مَكحولة العينينِ كالكعابِ (٢)

وضَّح الشاعرُ في الأبيات السابقة الجمالَ الطبيعيَّ، وعلاقتَه بالعلاقات الاجتماعية، حيث إنَّ الجمالَ والمظهرَ الخارجيَّ هو جزءٌ معبِّرٌ عن الذات، يسعى الإنسانُ أن يُظهرَ أفضلَ ما لديه، ثم أخذ يتعرَّضُ للمرأة وجمالها.

ويقول في طائر الخطاطيف:

وهندية الأوطان زنجية الخلق ... مسودة الأثواب محمرّة الحدقْ

كأن بها حزناً وقد لبست له ... حداداً وأذرت من مدامعها العلقْ

إذا صرصرت صرّت بآخر صوتها ... كما صرَّ ملوى العود بالوتر الحلقْ (٣)

١- يتيمة الدهر / ٢ : ٢٦٣ .

٢- السابق / ٢ : ٢٦٧ .

٣- السابق / ٢ : ٢٦٧.

صوَّر الشاعرُ في الأبيات السابقة الطيورَ المهاجرةَ، واصفًا إيَّاها بسواد لونها، فهي كالثوب الذي ترتديه المرأةُ في حزنها، وصوتها كصوت آلةٍ موسيقيةٍ، ويلتقي بها في وقت الصيف، وتُفارقُه في وقت الشتاء حينما تُغادرُ إلى وطنها، فلوحظ تفاعلُ الشاعرِ مع الطبيعة من خلال وصفه لملامح الطائر الهندي، كما تحملُ الطبيعةُ صفاتٍ إنسانيةً تعكسُ الحالةَ النفسيةَ؛ لما تحملُه الطبيعةُ من أصواتٍ موسيقيةٍ خاصةٍ بها.

وممَّا سبق يُلحظُ أنَّ أبا إسحاق الصابئ وصفَ الوردَ، والنرجسَ، والطيور، وغيرها، بينما الشريفُ الرضيُّ وصف الطبيعةَ ومظاهرَها من: ليلٍ، وبرقٍ، ورعدٍ، ومطرٍ، وغيرها من مظاهر الطبيعة، واصفًا إيَّاهم في لوحاتٍ فنيةٍ رائعةٍ، وأنَّ شعرَ الطبيعةِ عند الشاعرين كان مرتبطًا بالمشاعر الإنسانية المختلفة سواء أكانت سعادةً، أم حزنًا، أم حنينًا، كما وُجد اختلافٌ بينهما في أنَّ شعرَ الطبيعة عند الصابئ ركَّز على التأمُّل الفلسفي، بينما ركَّز الشريفُ الرضيُّ على القيم الإنسانية من: شجاعةٍ، وإقدامٍ، وكرمٍ، وكذلك القيم العاطفية.

الرؤية الدينية في مخيلة الشاعرين

قضت الدولةُ الأيوبيةُ على المذهب الشيعي، وقام على أنقاضه المذهبُ السنيُّ، وتمَّ توحيدُ البلادِ تحت رايةِ صلاح الدين الأيوبي، بعد ما شهدته بغداد من فتنٍ واضطراباتٍ " بين أهل السنة والشيعة الذين قَويت شوكتُهم وناصروا الفاطميين، ففي عام (٣٩١ هـ / ١٠٠٠م) ثار الأتراكُ على أبي نصر سابور نائب السلطان، فهرب منهم، ووقعت الفتنةُ بين الأتراك والعامة من أهل الكرخ، فساعد الأتراكُ إخوانَهم على أهل الكرخ، فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، ثم تجدَّدت هذه الفتنةُ سنة (٤٢٢هـ / ١٠٣٠م) في عهد القائم بأمر الله، وانتهت بقتل جموعٍ من أهل الكرخ، وخربت أسواق العروس والصفارين والنماط ... الخ " [١].

١- صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية – أحمد الشامي – مكتبة النهضة العربية – القاهرة – ط: (١) سنة ١٩٩١/ ص١٩.

وبعد شدٍّ وجذبٍ، وقتالٍ شديدٍ بين المسلمين (السنة والشيعة)، والمسلمين والمسيحيين، " استطاع صلاحُ الدين في مصرَ أن ينسى مشاكلَه في الشام لبعض الوقت، ويُركِّزُ جهودَه على إدخال المذهب السُّنِّي إلى أرض النيل ... فإنَّنا على يقينٍ من أنَّه بنى على الأقل خمسَ مدارسَ في مصرَ ..." [١].

حيث حاول صلاحُ الدين كَسْبَ الرأي العام، وتأييده له، فأقام علاقاتٍ وديةً بينه وبين الناصر لدين الله، فكتب له رسالةً بعدد الانتصارات التي حقَّقها، موضِّحًا سوءَ الأوضاع في بلاد الشام، ثم رحل إلى الموصل، وحاصرها، واستمرَّ في توغُّله، فضمَّ آمد، وحلب [٢].

وأراد صلاحُ الدين من هذا كله تدعيمَ موقفه من الخليفة العباسي؛ بسبب عجزه عن الاستيلاء على الموصل، ثم أخبره باستمراره في تصفية أموره في الموصل، وضمِّ كلٍّ من: خلاط، وميا فارقين، ولكن استغل عزُّ الدين مسعود مرضَ صلاح الدين، وبعد مفاوضاتٍ توصَّل الطرفان إلى أن يُخطبَ لصلاح الدين على منابر الموصل، ويبقى عزُّ الدين مسعود حاكمًا على الموصل[٣] .

هذه لمحةٌ عن الدولة الأيوبية التي عاش فيه الشاعران، حيث عكس شعرُهما التنوعَ الدينيَّ والثقافيَّ الذي كان سائدًا داخل الدولة العباسية، فالصابئ تأثَّر بالبيئة الإسلامية التي عاش فيها، مع أنَّه كان ينتمي إلى الصابئة، ممَّا جعله يستخدمُ صورًا دينيةً تعكسُ فهمَه للعالم من منظورٍ إنسانيٍّ، وأخلاقيٍّ، والرضيُّ كان نقيبًا للأشراف، ممَّا جعله يعكسُ في شعره القيمَ الدينيةَ، مستخدمًا التعبيراتِ والألفاظَ

١- صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني – عبد الرحمن عزام – ترجمة / قاسم عبده قاسم – مؤسسة قطر للنشر – ط: (٢) سنة ٢٠١٣ / ص١٤٣.

٢- ينظر: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام والجزيرة (٥٦٩ – ٦٦١ هـ / ١١٧٤ م- ١٢٦٣ م) – دار النقاش – دار النفائس – بيروت – ط: (٢) سنة ٢٠٠٨ / ٦٩ – ٧٥ .

٣- ينظر: السابق / ص ٨١.

الدينيةَ الإسلاميةَ، ومتأثِّرًا بالقرآن الكريم؛ وذلك لتعزيز رؤيته للعالم، حيث استثمر معانيَ القرآنِ في شعره، يقولُ –راثيًا الصاحبَ بنَ عبادٍ–:

أرى المرء يفعل فعل الحديد ... وهو غداً حمـــأ لازب

عواري من سلب الهالكين ... يمد يداً نحوها السالب

لنا بالردى موعد صادق ... ونيل المنى موعد كاذب[١]

يغترُّ الإنسانُ بقوته، ويفعلُ فعلَ الحديدِ، وبعد قوته يُصبحُ ضعيفًا، ويُصبحُ تحت التراب، وهذه نهايةُ كلِّ إنسانٍ على وجه البسيطة، كما يُشيرُ الشاعرُ في البيت الأول إلى قوله تعالى:

{فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍۭ لَّازِبٍۭ } [٢].

ويقولُ – راثيًا والدتَه فاطمةَ بنتَ الناصر–:

وَأعُوذُ بالصّبْرِ لو نفع الغليل بكائي ... وَأقُولُ لَوْ ذَهَبَ المَقالُ بِدائـــي

طـوراً تكاثرني الدمـــوع ، ... وتارة آوي إلـى أكرومتي وحيائي

كـم عبـرة موهتهـا بأناملي ، ... وسترتها متجمـلاً بردائـــي[٣]

يتعوَّذُ الشاعرُ في الأبيات السابقة بالصبر؛ لأنَّ الإنسانَ الصابرَ هو الذي يعرفُ أنَّ الموتَ حقٌّ على كلِّ إنسانٍ، ويُعدُّ الصبرُ أهمَّ صفةٍ يتحلَّى بها الإنسانُ وقتَ المصيبةِ، ولا يُمكنُ لأي إنسانٍ أن يتجاوزَ أيَّ محنةٍ إلَّا بالصبر، وليس بالبكاء، ويُشيرُ إلى قوله تعالى: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [٤].

ويقول في الزهد:

ما لي، إلى الدّنيا الغرورة، حاجة، ... فليخز ساحر كيدها النّفّاث

طلقتها ألفا لأحسم داءهـا، ... وطلاق من عزم الطلاق ثلاث

١– ديوان الشريف الرضي / ١ : ١٣٩.

٢– سورة الصافات / آية ١١.

٣– ديوان الشريف الرضي / ١ : ٢٦.

٤– سورة يوسف / آية ١٨.

سكناتها محـــــذورة، و عهودهـــــا منقوضة، و حبالها أنكـــــــاث[1]

يتضحُ من الأبيات السابقة أنَّ الشاعرَ زاهدٌ في دنياه، وغيرُ راغبٍ فيها؛ فهي زائلةٌ، ويربطُ بين عدم رغبته في الدنيا وبين عدم رغبته في كيد الساحرات اللاتي ينفخن في العقد، وهنا يُشيرُ إلى قوله تعالى: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ }"[2]، وفي البيت الثالث يقول: هناك مَن يُعطي عهدًا وسرعان ما ينقضُ هذا العهدَ، فيكونُ مثله كمثل امرأةٍ غزلتْ غزلَها، وأحكمته، ثم نقضته، ويُشيرُ هنا إلى قوله تعالى: {وَلَـــا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ}[3].

ويقول يرثي والدته:

وَكَأَنَّ طولَ العُمرِ رَوحَةُ راكِـبٍ قَضّى اللُغوبَ وَجَدَّ في الإسراءِ

أَنضَيتِ عَيشَكِ عِفَّةً وَزَهـــادَةً وَطُرِحتِ مُثقَلَةً مِنَ الأَعبـــاءِ

بِصِيامِ يَومِ القَيظِ تَلهَبُ شَمسُهُ وَقِيامِ طولِ اللَيلَةِ اللَيـــلاءِ[4]

شبَّه الشاعرُ في الأبيات السابقة حياةَ الإنسان مثل إنسانٍ راكبٍ، وينتقلُ مـــن مكانٍ إلى آخرَ، ويصومُ مع شدَّةِ الشمس، ويقومُ الليلَ، ويُشيرُ هنا إلى قول رســـول الله ﷺ: " مَا لِي ولِلدُّنيَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْـــتَ شَـــجَرَةٍ ثُـــمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا "[5].

ويقول في شكوى الزمان:

بيوم كثير بالغبار عطاســـــــه، إذا ثوّب الدّاعي قليل المشمّت

معارك يخدجن المهار، وبعدهـــا مناعي رجال ملقيات الأجنّة

١- ديوان الشريف الرضي / ١ : ٢٨٨.

٢- سورة الفلق / آية ٤.

٣- سورة النحل / آية ٩٢.

٤- ديوان الشريف الرضي / ١ : ٢٧.

٥- الجامع الكبير – سنن الترمذي – الترمذي – ت: بشار عواد معروف – دار الغرب الإسلامي – بيروت سنة ١٩٩٨ / ٤ : ٢١٦.

ورمحي إلى الأعداء كيدي، وصارمي جناني يوم الرّوع، والصّبر جنّتي [١]

يقولُ الشاعرُ: إنَّ يومَ الغبارِ يكثُرُ العطاسُ، وقِلَّةٌ مَن يُشَمِّتُ العاطسَ، وقد كانت شكوتُه " تكتسبُ قيمتَها وأهميتَها من شخص صاحبها؛ ولأنَّ صاحبَها كان عزيزَ النفسِ طموحًا، فقد كان اهتمامُه بعظائم الأمور، فلم يلتفتْ إلى كلِّ ما يجري في دنيا الناس، إنَّما رصد أهمَّ ما يجري، ولخَّصه في غياب الحكومة القوية، ولخَّص الحلَّ في خلافةٍ علويةٍ رآها البديلَ المناسبَ، وتبيَّن أنَّ شكوى الشريفِ الرضي لم تتوقَّفْ عند همومه الخاصة، بل كانت نبضًا وحلمًا إنسانيين، كانت تحتضنُ همومَ الجميع، وتُداعبُ مشاعرَ الجميع "[٢]، وهنا يُشيرُ في البيت الأول إلى قوله ﷺ: إذا عَطَسَ أحدُكم فلْيقلْ: الحمدُ للهِ، ولْيردَّ مَن حوْلَه: يَرْحَمُك اللهُ، ويَرُدُّ عَلَيْهِم: يَهْدِيكُمُ اللهُ، ويُصْلِحُ بَالَكُمْ " [٣] .

ويقول:

هو الرّزق مقسوما، وليس تناله ببرد التّباطي أو بحرّ الحثاحث

أعنتم على حربي المقادير عنوة، ورشتم إلى قلبي سهام الحوادث

ولم تدعوني والزّمان، فإنّه لأكرم فعلا منكم في الهنابث[٤]

إنَّ الرزقَ مقسومٌ لكلِّ إنسانٍ من عند الله، فكلُّ إنسانٍ منَّا سيأخذُ رزقَه الذي أقرَّه اللهُ له، فَلا حيلةَ في الرزق، ولا يأخذُ أكثرَ ممَّا قدَّره اللهُ له ولا أقلَّ، وهنا يُشيرُ إلى قول الرسول ﷺ: " مَا مِن عَبْدٍ أَكْسَبَ مِن أَحَدٍ، ولَكِنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ مِنَ اللهِ لِعَبَادِهِ " [٥].

١- ديوان الشريف الرضي / ١ : ٢٧.

٢- شكوى الزمان في شعر الشريف الرضي – محمود عبد الحفيظ – ط: (١)- مطبعة رشيد للطباعة – الزقازيق – سنة ٢٠٠٧م/ ص٣١٥.

٣- سنن ابن ماجة – محمد بن يزيد القزويني – تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي – دار الكتب العربية (د.ت) / ١ : ٢٠٢.

٤- ديوان الشريف الرضي / ١ : ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

٥- تاريخ اصبهان أضار أصبحان – الأصفهاني – ت: سير كسروي حسن – دار الكتب العلمية – بيروت – ط: (١) ١٩٦٠ / ١ : ٢٠٢.

ويستدعي الشريفُ الرضيُّ الشخصياتِ التاريخيةَ في شعره، فنراه يستحضرُ جريرًا، والفرزدقَ، قائلًا:

وقصيدة عذراء مثـــ ل تـأنّق الرّوض النّضير
فرحت بمالك رقّهـــا، فـــرح الخميلة بالغدير
وكأنّه في رصفهـــــا، جار الفرزدق أو جريـر [1]

استلهم الشريفُ الرضيُّ شخصياتٍ أدبيةً بارزةً، همـــا: جريـــر والفـــرزدق، واستلهمهما في قصيدةٍ مدح بها أباه، فكلٌّ من: والد الشريف الرضـــي، وجريـــر، والفرزدق -يُحبُّ المالَ، والشريفُ الرضيُّ ينظمُ الشعرَ من أجل الحصـــول علـــى المال، ويقولُ مستحضرًا شخصيةَ نبيِّ الله يعقوب – عليه السلام -:

فقد أرتك الأسى، وإن قدمت، عن يوسفُ كيف صَبر يعقوبا
طَمعت، يا دهر، أن تروّعه، ظنّا على الرّغم منك مكذوبا[2]

استحضر الشاعرُ في البيت الأول شخصيةَ نبيِّ الله يعقوب (عليه الســـلام)، وما أصابه في فقد ابنه يوسف (عليه السلام)، وتحمُّله الفراقَ، وصبره حتى أُكـــرم برؤية ابنه يوسف، فهنا جاء الصبرُ؛ للربط بين صبر نبي الله يعقوب على مفارقـــة ابنه، وبين صبر بهاء الدولة -أيضًا- على فراق ابنه، وفي الأبيات السابقة دعـــوةٌ صريحةٌ من الشاعر لبهاء الدولة بالصبر على مصيبته في فراق ابنه؛ أسوةً بنبيِّ الله يعقوب (عليه السلام).

ويقولُ -في رثاء عمرَ بن عبد العزيز-:

يا ابنَ عَبدِ العَزيزِ، لَو بَكَتِ العَي نُ فَتىً مِن أُمَيَّـــةٍ لَبَكَيتُـــــك
غَيرَ أَنّي أَقولُ: إِنَّكَ قَد طِـــب تَ، وَإِن لَم يَطِب ،وَلَم يَزكُ بَيتُك

١- ديوان الشريف الرضي / ١ : ٤٣١.

٢- السابق / ١ : ١٣٦.

أَنتَ نَزَّهتَنا عَنِ السَبِّ وَالقَـــذ ف فَلَو أَمكَنَ الجَزاءُ جَزَيتُـــك[١]

استحضر الشاعرُ شخصيةَ الخليفة الخامس من الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز؛ لما اتصف به من: صدقٍ، وأمانةٍ، وعدل؛ لأنَّـــه تربَّـــى علـــى الـــورع، والتقوى، وحبِّ آل البيت – رضوان الله عليهم أجمعين–؛ لأنَّ حبَّهم أشبهُ في أعماله بأعمال آل البيت.

ويقولُ –في رثاء الحسين عليه السلام–:

ثُم سَبطاه الشهيدان ، فـــذ ابحـــــا التم ، وهذا بالظبي

وعلى ، وابنهُ الباقر ، والصـ ـادقُ القول ، وموسى والرضي (٢)

استلهم الشاعرُ في البيت الأول شخصيةَ الحسن بن عليٍّ، والحسين بن علـــيٍّ (رضي الله عنهما أجمعين)؛ فهما شهيدان، وهما سيدا شبابِ أهلِ الجنة، فالحســـنُ مات مسمومًا، والحسين مات بالسيف، وربط بين الغدر بالحسن والحسين، والغـــدر بأبيهما الإمام عليٍّ ﷺ في المسجد.

ويقول في موضعٍ آخرَ:

لسّننت في الأقوامِ غير مُلـــوم ما سن يوم ابن الزُبير يزيـــد

اليوم أصحرت الضغائن وانجل ت تلك الموارن والجباه السود[٣]

استلهم الشاعرُ شخصيةً لها مكانةٌ كبيرةٌ، ألا وهي شخصيةُ عبد الله بن الزبير بن العوام، وتحدَّث الشاعرُ في هذا البيت عن أنَّ عبدَ الله بن الزبير رفض مبايعـــةَ يزيدَ بن معاوية، وهذا الرفضُ قريبٌ ممَّا فعله الحسينُ – عليه الســـلام –، ويقـــولُ عندما توجَّه الناسُ إلى الحجيج:

١– ديوان الشريف الرضي / ١ : ٢١٥.

٢– السابق / ١ : ٤٧.

٣– السابق / ١ : ٣١١.

أَقـــولُ لِركبٍ رائحينَ لَعَلَّكُـــم ... تَحلّونَ مِن بَعدي العَقيقَ اليَمانِيا
خُذوا نَظرَةً، مِنّي فَلاقوا بِها الحِمى ... وَنَجداً وَكُثبانَ اللِوى وَالمَطالِيـــا
وَمُـــــرّوا عَلى أَبياتِ حَيٍّ بِـرامَةٍ ... فَقولوا: لَديغٌ يَبتَغي اليَومَ راقِيـا
عَدِمتُ دَوائي بِالعِراقِ، فَرُبَّمـــــا ... وَجَدتُم بِنَجدٍ لي طَبيباً مُداوِيـــا
وَقولوا لِجيرانٍ عَلى الخَيفِ مِن مِنىً ... تُراكُم مَنِ اِستَبدَلتُمُ بِجِوارِيـــا [1]

يُلحظُ في الأبيات السابقة ميلُ الشاعرِ إلى استخدام الألفاظ الإسلامية (الأماكن المقدسة) عند أداء فريضة الحج: (العتيق – منى – نجد – رامة – الخيف)؛ ليوضِّحَ لنا مدى ارتباطه بهذه الأماكن، وكذلك توضيح مدى رؤيته الدينية وارتباطه بها.

ويقولُ في موضعٍ آخرَ:

لَكُـم حَرَمُ اللَهِ المُعَظَّمُ لا لَنـــــا ... وَبَطحاؤُهُ وَالأَخشَبانِ وَزَمـــزَمُ
وَما رَدَّ شِعبَ المَأزَمَينِ عَلـــى مِنىً ... وَجَمعٍ وَما وارى السِتارُ المُحَـــرَّمُ
لَئِن لَم تُصَبِّحكُم بِهـــا مُستَغيرَةٌ ... كَصَكَّةِ أَنفِ المَرءِ يَتبَعُها الـدَمُ [2]

كثُرت في هذه الأبيات الأماكنُ الإسلاميةُ المقدسةُ المتماسكُ بعضها مع بعضٍ، مثل: (البطحاء – الأخشبان – زمزم – منى – الستار المحرم)، حيث ترتبطُ باستحضارِ مشاهدِ الحجِّ، الذي يلتقي فيه المسلمون بربِّهم، وقد ذهبوا إلى هذه الأماكن طالبين المغفرةَ، والعفوَ، متجردين من كلِّ شيءٍ يمتلكونه.

أمَّا الصابئ، فيقول:

صلِّ يا ذا العلا لربك وانحرْ ... كل ضد وشانئ لك أبترْ
أنت أعلى من أن تكون أضاحي ... ك قروماً من الجمال تعفَّرْ
بل قروماً من الملوك ذوي السؤ ... دُدِ تيجانها أمامك تُنثَرْ [3]

١- ديوانه / ٢ : ٥٧٠.
٢- السابق / ٢ : ٣٠٨.
٣- يتيمة الدهر / ٢ : ٢٧٩.

استلهم الشاعرُ البيتَ الأولَ من قوله تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [١].

ويقولُ في موضعٍ آخرَ:

كل الورى من مسلم ومُعاهد ... للدين منهُ فيك أعدلُ شاهدِ

فإذا رآك المسلمون تيقنوا ... حور الجنان لدى النعيم الخالد

أثنوا على تثليثهم واستشهدوا ... بك إذ جمعت ثلاثة في واحد [٢]

اقتبس الشاعرُ في البيت الأول من قوله تعالى: {مُتكِـِٔين عَلَى سُرُرٍ مصّفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَهُم بِحُورٍ عِينٍ} [٣].

ويقولُ -مهنِّئًا الوزيرَ المهلبيَّ بعيد الفطر-:

أسيدنا هُنّئتَ نعماك بالفطر ... ووُقيتَ ما تخشاه من نوب الدهر

مضى الصوم قد وفيته حق نسكه ... ووفاك مكتوب المثوبة والأجر

كلفتَ بذكر الله فيه فلا تزل ... من الله فيما ترتجيه على ذكر

هجرتَ هجود الليل فيه تهجّداً ... وصبراً على طول القراءة للفجر

فلو نطقت أيامنا باعتقادها ... لناجتك لفظاً بالدعاء وبالشكر [٤]

يُلحظُ أنَّ الشاعرَ في الأبيات السابقة استخدم ألفاظًا إسلاميةً، وهذا دليلٌ واضحٌ على تأثُّره بالإسلام، ورؤيته الدينية، فمن هذه الألفاظ: (عيد الفطر – الصوم – حق نسكه – مكتوب المثوبة بذكر الله – هجرت هجود الليل – الصبر – قرآن الفجر – الدعاء والشكر).

١- سورة الكوثر / الآيات: ١،٢،٣.

٢- يتيمة الدهر / ٢ : ٢٥٩.

٣- سورة الطور / آية ٢٠.

٤- يتيمة الدهر / ٢ : ٢٧٧.

ويبدو أنَّ الصابئَ تأثَّر بالثقافة الإسلامية مع الاختلافِ حول دخوله في الإسلام، فقيل: إنَّ معزَّ الدولةِ عرض عليه منصبَ الوزارةِ؛ جزاءً له على ذلك، ولكنَّه أبى، وظلَّ مخلصًا لمعتقداته حتى وفاته [١].

وقال: " رَحِمَ اللهُ أبا إسحاقَ؛ فقد جَدَّ كلَّ الجَدِّ في أن ينسجمَ مع المجتمعِ المضطربِ، وأن ينالَ ما نال منه الآخرون ... وأرضى المجتمعَ المتعصبَ باصطناعِ مظاهرِ الدينِ الإسلامي، فصام، وحَفِظَ القرآنَ" [٢].

وبعضُ المصادرِ ذكرت أنَّه حينما عُرض عليه الإسلامُ دخل فيه [٣].

وخلاصةُ القولِ: إنَّ الشريفَ الرضيَّ تأثَّر بالفكر الإسلامي الشيعي، حيث كان يحملُ شعرُه بين طياته القيمَ الأخلاقيةَ؛ فكانت " له مكانةٌ عاليةٌ في المجتمع الإسلامي طوال عهدٍ من عهود الخلافة العباسية، بصفة نقيب الطالبيين، وأمير الحج والمظالم ...الخ " [٤]، بينما ركَّز الصابئُ على التفاعل مع الثقافات المتباينة الموجودة في عصره؛ وذلك تماشيًا مع الانفتاحِ السائدِ في عصره.

١- ينظر: دائرة المعارف الإسلامية – بطرس البستاني – دار المعرفة – بيروت – سنة ١٩٧٢/ ١٤:٨٣.

٢- أبو اسحق الصابئ : سيرة وفنًا – عبد القادر حسن أمين / ص٢٦.

٣- ينظر: الأعلام – الزركلي – دارة العلم للملايين – بيروت (د ت) / ص٧٨ .

٤- دراسة جمالية في شعر الشريف الرضي – سميحة غنام – مجلة جامعة دمشق – مج (٢١)- ع (٣-٤) سنة ٢٠٠٥م /ص١٦.

الخاتمة

يُعنَى هذا البحثُ بدراسة "رؤية العالم في شعر أبي إسحاق الصابئ والشريف الرضي"، مستعينًا بفئةٍ خاصةٍ من فئات المجتمع العباسي، وهم الشعراءُ بوصفهم طبقةً اجتماعيةً، وسياسيةً، وثقافيةً، حيث تأسَّسَ هذا البحثُ على منهج البنيوية التكوينية، للوسيان جولدمان:

وقد توصَّل الباحثُ بعد استثمار الجهد المبذول إلى ما يلي:

- استطاع الشاعران أن يُمثِّلا تصوُّرًا حقيقيًّا لرؤية العالم.
- وجودُ صلةٍ وثيقةٍ بين الصابئ والشريف الرضي، ممَّا كان له أثرٌ على كتابتهما من: مدحٍ، وتهنئةٍ.
- أكثر أبو إسحاق الصابئ من مدحه لآل بويه؛ وذلك يرجعُ لطبيعة عمله عند ملوك عصره.
- كان غزلُ الرضيِّ عفيفًا يتحدَّثُ عن المرأة دون المساسِ بها وبمفاتنها الجسدية، حيث إنَّه تأثَّر بالقيم الإسلامية، بينما ركَّز أبو إسحاق الصابئ في شعر المرأة على الجمال الطبيعي، فهي مصدرٌ للإلهامِ، والتأمُّل؛ فلم يتقيَّدْ بقيودٍ اجتماعيةٍ، أو دينيةٍ.
- كان أبو إسحاق الصابئ يميلُ في هجائه إلى النقد اللاذع، مصوِّرًا الأمراضَ، والعيوبَ المستشريةَ في المجتمع، بينما كان هجاءُ الشريفِ الرضي من أجل الإصلاح الاجتماعي.
- كان الشريفُ الرضيُّ شديدَ الانتماءِ للطالبيين، فكان يدعو للإصلاح، ونقد الظلم والاستبداد، بينما كان أبو إسحاق الصابئ يشغلُ رئيسَ ديوانِ الرسائلِ في الدولة العباسية.
- عكس أدبُهما تشكيلَ الوعي الاجتماعي لديهما، حيث قدَّم أبو إسحاق الصابئُ العلاقاتِ الاجتماعيةَ من منظورٍ فلسفيٍّ، بينما قدَّم الشريفُ الرضيُّ العلاقاتِ الاجتماعيةَ من منظورٍ أخلاقيٍّ ودينيٍّ.

– تعامل الرضيُّ مع الطبيعة من منظورٍ اجتماعيٍّ، متمثِّلًا ذلك في القيم الاجتماعية إلى جانب المنظور الوجداني.

– تعامل أبو إسحاق الصابئُ مع الطبيعة من منظورٍ فلسفيٍّ، فكان وصفُه للطبيعة يحملُ بين جنباته تفاصيلَ التفاصيل.

– تأثَّر الشريفُ الرضيُّ بالفكر الشيعي، بينما ركَّز أبو إسحاق الصابئُ على القيم الفلسفية والتأمُّلية، حيث إنَّه كان ينتمي إلى الصابئة.

– على الرغم من الاختلافِ في الانتماء الديني بينهما، إلَّا أنَّهما ركَّزا على القيم الأخلاقية، والإنسانية الشاملة، مثل: العدالة، والتسامح، والإحسان.

المصادر والمراجع

-اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري – محمد مصطفى هدارة – دار المعارف – القاهرة – سنة ١٩٦٣م – الأطروحة والتأويل – إدريس الناقورس – دار النشر المغربية – البيضاء – سنة ٢٠٠٦م.

– أعيان الشيعة – السيد محسن أمين – تحقيق: حسن الأمين – دائرة المعارف للمطبوعات – بيروت – سنة ١٩٨٣م.

– الأعلام – الزركلي – دارة العلم للملايين – بيروت – (د.ت).

-الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي – عزيز السيد جاسم – دار الأندلس للنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ط: (١) – سنة ١٩٨٦م.

– البنيوية التكوينية والنقد الأدبي – لوسيان غلودمان وآخرون – ترجمة: محمد سبيلا – مؤسسة الأبحاث العربية – ط: (٢) – سنة ١٩٨٦م.

– تأصيل النص – المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان – مركز الإنماء الحضري – حلب – ط: (١) – سنة ١٩٩٧م.

– تاريخ أصبهان أضار أصبحان – الأصفهاني – ترجمة: سير كسروي حسن – دار الكتب العلمية – بيروت – ط: (١) – سنة ١٩٦٠م.

– تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام والجزيرة (٥٦٩–٦٦١هـ / ١١٧٤م–١٢٦٣م) – دار النقاش – دار النفائس – بيروت – ط: (٢) – سنة ٢٠٠٨م.

-الحياة الاجتماعية في العراق زمن البويهيين – حورية عبده سلام – دار العالم العربي – مدينة نصر – القاهرة – ط: (١) – سنة ٢٠٠٩م.

-الحياة الأدبية في العصر العباسي – محمد عبد المنعم خفاجي – دار الوفاء للنشر والتوزيع – ط: (١) – سنة ٢٠٠٤م.

– الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية والثقافية في عصر الخليفة المأمون (١٧٠–٢١٨هـ) – خالد محمد أحمد بديوي – رسالة ماجستير – كلية البنات – عين شمس – مصر – سنة ٢٠٠١م.

-دائرة المعارف الإسلامية – بطرس البستاني – دار المعرفة – بيروت – سنة ١٩٧٢م.
-دولة بني العباس – العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ) – محمد علي أبو زهرة – سلسلة تقريب التراث.
-ديوان الشريف الرضي – دار صادر للطباعة والنشر – بيروت – سنة ١٩٦١م.
-ديوان صلاح عبد الصبور – صلاح عبد الصبور – دار العودة – بيروت – ط: (٢) – سنة ١٩٧٧م.
- رؤية العالم عن الأستاذ الإمام "محمد عبده" – دراسة تحليلية نقدية – سيف الدين عبد الفتاح – جامعة القاهرة – نوفمبر ٢٠٠٥م.
- رؤية العالم – عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر – جابر عصفور – المركز الثقافي العربي – ط: (١) – سنة ٢٠٠٨م.
- رؤيا العالم في الخطاب المسرحي السياسي السوري – سعد الله ونوس أنموذجًا – رابح ذياب – رسالة دكتوراه – جامعة باتنة – الجزائر – سنة ٢٠١٦م.
-زهر الآداب وثمر الألباب – أبو إسحاق القيرواني – ترجمة: محمد محي الدين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت – ط: (٤) – (د.ت).
- سنن ابن ماجة – محمد بن يزيد القزويني – تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي – دار الكتب العربية (د.ت).
- شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية – عبد اللطيف عمران – دار الينابيع – دمشق – ط: (١) – سنة ٢٠٠٠م.
- شعر الطبيعة في الأدب العربي – سيد نوفل – مطبعة مصر – سنة ١٩٤٥م.
- شعرنا القديم والنقد الجديد – وهب أحمد روميه – عالم المعرفة – مارس – سنة ١٩٩٦م.
-شكوى الزمان في شعر الشريف الرضي – محمود عبد الحفيظ – ط: (١) – مطبعة رشيد للطباعة – الزقازيق – سنة ٢٠٠٧م.

- صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني – عبد الرحمن عزام – ترجمة: قاسم عبده قاسم – مؤسسة قطر للنشر – ط: (٢) – سنة ٢٠١٣م.
-صلاح الدين والصليبيون – تاريخ الدولة الأيوبية – أحمد الشامي – مكتبة النهضة العربية – القاهرة – ط: (١) – سنة ١٩٩١م.
- عن البنيوية التوليدية – جابر عصفور – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مجلة فصول – ع (١) – مصر – (د.ت).
- الغزل في الشعر العربي – سراج الدين محمد – ذو الراتب الجامعية – بيروت – لبنان – (د.ت).
- معجم الأدباء – إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب – ياقوت الحموي – تحقيق: إحسان عباس – دار الغرب الإسلامي – ط: (١) – سنة ١٩٩٣م.
- مفهوم رؤية العالم في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا – أحمد زايد – المجلة الاجتماعية القومية – ع (٣) – مج (٥٢) – سبتمبر – سنة ٢٠١٥م.
- مكانة الشريف الرضي بين شعراء المديح – محمد جواد إسماعيل غانمي – مجلة التراث الأدبي – العدد (٦) – السنة الثانية – سنة ١٣٨٩ه.
- موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي – محمد زكي العشماوي – دار النهضة العربية – بيروت – سنة ١٩٨١م.
- النجوم الزاهرة – ابن تغري بردي – دار الكتب المصرية – (د.ت) – (د.ط).
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر – أبو منصور الثعالبي – تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد – مكتبة الحسين التجارية – (د . ت).

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٧٢٥
٢-	Abstract	٧٢٦
٣-	المقدِّمة	٧٢٧
٤-	تمهيد : رؤية العالم في شعر أبي اسحق الصابئ والشريف الرضي	٧٣٤
٥-	المبحث الأول: الرؤية السياسية والاجتماعية في مخيلة الشاعرين "بين التباين والتلاقي"	٧٣٩
٦-	المبحث الثاني :المرأة والطبيعة في مخيلة الشاعرين	٧٥٧
٧-	الخاتمة	٧٧٧
٨-	المصادر والمراجع	٧٧٩
٩-	فهرس الموضوعات	٧٨٢